آلَـةُ الشّيطاَنِ

رواية

جنكو صالح تمو

دار النهج

آلة الشيطان

رواية

* جنكوتمو
* رواية آلة الشيطان
* الطبعة الأولى، 2019م
* حقوق الطبع محفوظة للمؤلف
* التدقيق اللغوي والأدبي: د. أحمد محمد دللو

جنكو تمو

آلة الشيطان

رواية

التدقيق الأدبي واللغوي

د. أحمد محمد دللو

دار النهج

بسم اللّه الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ©

الطبعة الأولى

1442هـ - 2021م

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب
أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات
أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال
دون إذن خطي من الناشر

الآراء الواردة في إصداراتنا لا تعبر بالضرورة
عن اتجاهات تتبناها الدار

حلب - سورية

هاتف : 9006 268 21 00963

جوال: 75 26 33 933 00963

الإهداء

إلى أخي كانيوار في بلاد الغربة...

إلى أخي ريناس في بلاد الغربة...

إلى أختي أفين في بلاد الغربة...

إلى أبي الغالي الذي كان يشجّعني دائماً

أولا: ما قبل الحلم

- 1 -

على صوت مؤذِّن جامع إبراهيم الخليل في مدينة القامشلي بحيِّ الهلالية، استيقظتُ خائفاً مذعوراً، من كابوس فظيع مهول أيقظني من سبات عميق، فهرعت إلى النافذة أتأمّل منظر السماء، فرأيتُ النّجوم اللامعة كسبائك الذهب تلعبُ فيها برقصات بهلوانية وتبدّد ظلمة سوادها، ورحت أصغي إلى صوت المؤذِّن الجهوريّ الذي يملأ الأفق ويقطع سكون الليل وهو يردّد: «الصلاة خيرٌ من النوم»، حاثّاً الناس على النهوض لأداء صلاة الفجر، معلناً بداية يوم جديد.

جلستُ على حافة سريري، أستعيد أحداث ذلك الكابوس الغريب، فمرّت في جسديّ رعشةٌ قوية، ونظرت إلى الوسادة التي كانت تحت رأسي فرأيتها مبتلّة، فتحسّستها بيديّ فشعرت بمائها الدافئ، فعرفت لحظتها أنني ذرفتُ دموعاً حارة غزيرة، وتذكّرت أنني كنتُ أحلمُ حلم الأبدية في ذلك الوقت من الفجر، ما سبّب لي ألماً شديداً في رأسي، وجفافاً في حلقي، كاد يشلّ حركة لساني، فتجرّعت جرعة من الماء البارد، علّي أصحو جيداً، وأتخلّص من ذعري.

- 2 -

وسط ذهولي من أثر هذا الحلم، نهضت «أمي» كدأبها اليوميّ لأداء صلاة الفجر؛ إذ كانت امرأة تقية ورعة تخاف الله. وكان من عادتها أن تمرّ على غرفتي لتتفقد حالي، وحين فتحت باب غرفتي رأتني جالساً على حافة سريري، أجهش بالبكاء الحاد، فاقتربت مني، بقامتها المنتصبة، وجسمها المكتنز، وشعرها الأسود الفاحم، ورنت إليّ بعينيها العسليتين، ووجهها الذي تشبه ملامحه إحدى لوحات الرسام العالمي مايكل أنجلو الشهير، وسألتني بعطف وحنان:

- لماذا لم تنم حتى الآن يا صغيري؟

- طار النوم من جفون عيني يا أمّاه.

ثمّ دنت مني أكثر، وسألتني بهمس:

- أيْ بنيّ جنكيز، هل تشكو من مرضٍ ما؟

- لا، يا أماه.

حاولت جاهداً في ذلك الوقت أن أشرح «لأمي» الغالية مدى معاناتي وألمي الشديدين، من جراء ذلك الحلم الفظيع الذي رأيته في منامي فجر هذا اليوم، لكنني لم أمتلك الجرأة والشجاعة الكافيتين في تلك اللحظة، أن أخبر «أمي» بذلك الحلم، وبعد جهدٍ جهيد وتعب مديد، قلت بصوتٍ متهدج ومتكسّر:

- يا أمّاه، رأيت منذ قليل يوم القيامة في منامي.

قالت «أمي» متعجّبة:

- ماذا تقول يا جنكيز؟

فقلتُ لها موضّحاً:

- أقصد البعث من القبور بعد الموت.

لم تصدّق «أمي» كلامي حينها، وأصرّت على معرفة ما حصل معي من قبل، ولا سيّما في تلك الأيام السابقة، ثمّ ابتسمت في وجهي، وسألتني عدة أسئلة تتعلّق بهذا الموضوع منها:

- يا جنكيز، هل قرأت شيئاً ما عن يوم القيامة في هذه الأيام؟ أو هل سمعت حكاية من شيخ جليل في الجامع؟ أو هل تحدّثت بهذا الخصوص مع الأصدقاء؟

زادتني أسئلتها المتتابعة الاستفزازية غضباً وقلقاً، ولكنّني كظمت غيظي من تلك الاتهامات الباطلة الموجهة إليّ، وقلتُ لها بنوع من التوسل:

- متى خرجتُ من البيت في غير أوقات دوام المدرسة يا أماه؟ أؤكّد لك أنه ليس لي أيّ اتّصال مع أحد، ولا أتبادل أطراف الحديث مع أيٍّ كان بهذا الخصوص.

شعرتُ عندها فجأةً بحقد أعمى يغمر كياني ويملأ فؤادي، ثمّ حمّلت «أبي» وزر ما أنا فيه، وقلتُ لها:

- يا أمّاه «أبي» رجل لا يخاف الله أبداً.

فزمزمت «أمي» شفتيها وتهيّأت للدفاع عنه مثلما يدافعُ محامي الدفاع عن المتهم، ويحاول بشتى الوسائل الممكنة تبرئة ساحة موكله، من دون التمحيص والتدقيق في ملابسات الطَّرَف الآخر في القضية، وقالت لي:

- بحقّ الرحمن، لماذا تقول ذلك عن والدك يا جنكيز؟

فانتابتني عاصفة هوجاء، دمّرت كلّ أفكاري، حين رأيتها تدافع بنبرة عالية عن زوجها الذي هو «أبي» وبكلّ طاقتها وقوّتها، فضربتُ بقبضة يدي حافة السرير الحديدي، وقلتُ بحنق:

- لماذا حطّم زوجك آلتي الموسيقية، يا أم جنكيز؟

- لقد فعل ذلك لمصلحتك يا جنكيز، فما هذا اليأس الذي أنت فيه؟

فقلت لأمّي، وأنا أهزّ بكتفي:

- بسبب زوجك، إنّه معذّب الأرواح يا أماه، وهو حائز على درجة دكتوراه في ذلك.

- بالله عليك، لا تقل لي هذا ثانية يا صغيري، فأغضب عليك غضباً شديداً.

وبعد هذه المرافعة والمدافعة عن «أبي» بدأت «أمي» أيضاً تذرف دموعاً غزيرة راحت تتدفّق على خدّيها المكتنزين، وتملأ صفحة وجهها المقدّس، محاولة مواساتي بشتّى الوسائل.

نظرت إليها بطرف عيني، ودهمني على عجل شعورٌ بالندم الشديد على ما قلت لها في تلك الأثناء، ولكنّي كدتُ أموت حزناً وألماً على تعنّتي معها، وعندما دقّقت النظر في وجهها الشاحب في تلك اللحظة قلت لها:

- أين مصلحتي برأيكِ، يا أمّ جنكيز؟

فردّتْ ببرودة أعصاب:

- أن تصبح طالباً جامعياً في المستقبل يا جنكيز.

- ولكنني لا أحبّ الدراسة في الجامعة.

فقالت بكلّ ثقة وطمأنينة:

- أنا وأبوك مسؤولان عن تأمين مستقبلك يا بنيّ، قبل أن نفارق الحياة.

انفعلتُ، ولم أستطع السيطرة على نفسي، وبيّنتُ لها بوضوح وصراحة تقطع الشك باليقين قائلاً لها:

- ولكن رغبتي المفضلة والحقيقية، في أن أكون موسيقياً في المستقبل، هذا ما أريده منكِ، ومن أبي.

فقالت «أمي» بهدوء:

- هذه المهنة لا تناسب عائلتنا، يا جنكيز... فكّر في شيءٍ آخر غير ذلك.

فنظرت بإمعان في وجهها، فقرأتْ في عيوني عدم اقتناعي بقولها، وحين

دققتْ في وجهي الأصفر مثل ثمرة المشمش، غيّرتْ مجرى الحديث، وسألتني:

- هل كان حلمك مرعباً، لهذه الدرجة يا بنيّ؟

- بالتأكيد، يا أمّاه.

- ولكنّك ذرفت دموعاً غزيرة، يا جنكيز... لا تخف، روحي فداك، يا حبيب أمك... ألم أطلب إليك قبل الآن، أن تترك هذه الآلة؟!

فردَدْتُ بسرعة وغضب:

- بماذا تضرّ، يا أم جنكيز؟

التفتت «أمي» إلى المكان الذي كنت أعلّق فيه آلتي المحطمة وقالت:

- يا بنيّ، إنّها السبب في عذابك الذي تقاسيه الآن.

ولكنني، وضعت رأسي في راحتَي يديّ كلتيهما، حالماً في عالم آخر غير هذا، وقلت متنهّداً:

- أصبحت آلتي جزءاً لا يتجزأ من كياني يا أمي.

فأخذتْ تتفوّه بعبارات كثيرة غير مفهومة لي، ما وصلني منها أنها ستكون ذات عواقب وخيمة عليّ، وختمت حديثها بقولها:

- هذا ما أعرفه، يا بنيّ.

فقلتُ لها:

- إن الله وحده هو الذي يعلم ما في الغيب، يا أمّاه.

فظهرت عليها علامات الحيرة والاستسلام، وقالت:

- يا ألله، ماذا عليّ أن أفعل؟

قلت لها كي تفصح أكثر، وتبيّن ما تكنّ في قلبها:

- ما الذي تقولينه بحقّ أبناء أمة الأمين؟

- لا شيء.. لا شيء، ثمّ صمتتْ.

كانت «أمي» تعي في قرارة نفسها أنّه سيأتي يومٌ تتعقّد فيه الأمور أكثر فأكثر بسبب هذه الآلة الموسيقية. لذلك كانت ترفع يديها يومياً نحو أبواب السماء، متضرّعة إلى رب العرش العظيم، أن يسود الأمن والسلام في ربوع بيتها الآمن. ثم قالت:

- ولتكن إرادة الله ومشيئته فوق كل شيء يا جنكيز.

- 3 -

والواقع أنّ أسرتي كانت من الأسر الفقيرة ذاتِ الدخل المحدود، وكان «أبي» يعمل عملاً يدوياً، يتطلّب جهداً وقوّة بدنيّة، وهاتان الصفتان توافرتا فيه؛ إذ كان طويل القامة، قوي البنية، وشعره أسود، ويملك جاذبية المغناطيس في شخصيته، لذلك اختار طريق العمل لكسب لقمة عيشه عن طريق عرق جبينه، وكان يسعى دائماً وأبداً إلى كسب ودّ الناس واحترامهم، وكان يريد أن يرتقي بنا إلى أعلى الدرجات والمراتب الاجتماعية في الحياة.

كنتُ الابن البكر للعائلة، وقد ورثت عن أبي طول القامة، وأناقة المظهر، وكانت الابتسامةُ لا تفارق محيّاي منذ نعومة أظفاري، ولكنّني حين صرت في سنّ الشباب بدأتُ أعاني من البؤس والشقاء، والسبب هو آلة موسيقية، هويتها وتعلّقتُ بها حدّ الجنون.

إنّها آلة البزق الوترية التي شاءت الصدف والأقدار أن أصحو وأجدها أمامي؛ إذ وضعها عندنا قريبٌ لنا حينما سافر لتقديم الامتحانات الجامعية في العاصمة. فأسرعت نحوها واحتضنتها، وجرّبت العزف عليها، فشعرت بلذة قلما شعرتُ بها، حيث سرحت في خيالي، إلى عوالم ترفّ فيها الروح طرباً، لأجمل الألحان التي يدوي صداها في آفاق الحياة، فتملأ الروح سكينة وهدوءاً، وتبعث فيّ المشاعر رقة وشجوناً.

وتعلّقتُ بتلك الآلة كما يتعلق الرضيع بأمّه، بل كما تتعلق الأم بالطفل الرضيع، ولم تغادر صورتها مخيّلتي، ورحتُ أراها في كل لحظة أمامي، بل حتى في منامي.

ومع أنني كنت أعيش في أسرة كبيرة وفي مجتمع يكثر فيه الناس من حولي، فإنني لم أكن أرى فيهم الأنس الذي أحسّه مع آلتي الحبيبة، فهي غذاء الروح والجسد معاً، وبوجودها أنعزل نفسياً وروحيّاً عن العالم الخارجيّ، لدرجة أنني لم أكن أسمع نداء «أمي» الحنونة، وكنت أوثر العزلة وأرفض كلّ دعوات الحضور لتلك الأكلات الطيبة واللذيذة التي كانت تعدّها «أمي» دائماً.

وكان ذلك كله يَحدث سرّاً، في الوقت الذي يكون فيه «أبي» خارج المنزل يمارس عمله اليومي. وعندما أحسّ والدي بمدى شغفي بهذه الآلة الموسيقية، حاول أن يخفيها عن نظري، بعدما أدرك أن عزلتي في الأيام الأخيرة في غرفتي لم تكن بغرض الدراسة والمدرسة، بل كنت أقضي معظم وقتي في ممارسة العزف على آلة البزق.

ولم تكن عزلتي مفروضة عليّ، بل كانت بمحض إرادتي، فهي ليست كعزلة روبنسون كروز الذي ركب موجة المغامرة والسفر وترك أهله وبلدته، فحكمت عليه إرادة القَدر بحياة العزلة الإجبارية التي دامت أكثر من أربع وعشرين سنة قضاها في الغابة وحيداً، وأصبح صديقاً للطيور والحيوانات البرية بدلاً من البشر، وقبل أن يغادر السفينة المحطمة والمتكسرة على صخور الشاطئ، رمى بصندوق الذهب إلى أعماق البحار السحيقة، وحمل معه المقصّ فقط من أجل الحاجة في الغابة.

- 4 -

وفي اليوم التالي لرؤيتي « للحلم الأبدي» مكثت في غرفتي مثل السجين الذي صدر الحكم بحقه، ولن يغادر زنزانته إلا بعد الانتهاء من حكمه، وكنتُ أزرع غرفتي جيئةً وذهاباً، وأنا في حالة من الاضطراب والارتباك، ولم أقصص رؤياي في المنام على أهل بيتي، بل ظلَّتْ حبيسة روحي، إلى أن يأمر القدر بذلك. ثمّ بدأت أسترجع ما حلمتُ به في ذهني، ودموعي تنهمر بغزارة، وكانت تغشى عيني منها، فلا أميز الأشياء من بعضها، وفجأة سمعت صوت خطوات قادمة نحو باب حجرتي، ثمّ طُرق الباب، فتقدّمتُ وفتحتُه وولجت إلى داخل حجرتي... إنها «أمي» التي تعرف سبب عزلتي، فسألتني بقلب منكسر:

- هل أنت بخير، يا بني؟

- نعم، يا أمي الحنونة.

- ولماذا لا تأتي وتشاركنا الجلسات والطعام كبقية إخوتك، يا جنكيز؟

أجبتُ بصعوبة:

- لقد فقدت شهيتي يا أمّاه، وأحسّ أنني لستُ على ما يرام خلال هذه الفترة.

- عليك الاهتمام أكثر بصحّتك كيلا تمرض يا صغيري.

وتناولتْ «أمي» المرآة التي كانت على سطح الطاولة الصغيرة، وكانت ذات إطار بلاستيكي أحمر باهت، ووضعَتْها أمام وجهي قائلةً:

- انظر إلى وجهك الأصفر الشاحب، يا فلذة كبدي.

فأجبتُ بيأسٍ وقنوط:

- بالتأكيد أعرف ما يجري معي، وأحسّ بذلك، فلا تخافي عليّ يا أمّاه.

- وزنك بدأ ينقص تدريجياً خلال هذه الفترة.

وضعت يدي على خصري النحيف، ثمّ قلتُ لها:

- ليست لي رغبة في الطعام أبداً.

وبحركات لا إرادية وانفعال شديد، قمت بنزع المرآة البلاستيكية من بين يديها، وقلت بصوت كئيب:

- أفضّل الموت على هذه الحياة القاسية التي لا ترحم أبداً.

اغرورقت عينا «أمي» بالدموع السخية، وارتعشت أصابعها عندما نطقتُ باسم الموت على لساني، فقلت لها:

- لماذا لا تُقنعين أبي بتغيير رأيه؟

حدّقت نحوي، وحرّكت رأسها يميناً وشمالاً وقالت:

- أنت تطلب مني المستحيل، يا صغيري.

فسألتها بانفعال شديد:

- ألا تملكين زمام المبادرة والقرار يا أمّاه؟

- لا. ما أنا سوى امرأة، وليس في مكنتي فعل أيّ شيء، ولا أستطيع أن أجبر والدك على شيء لا يريده.

بدأتُ التوسّل إلى «أمي» أكثرَ من أجل إقناع «أبي» على أن أتابع العزف على آلة البزق الوترية، ولكن لا فائدة من ذلك، فقلت لها:

- حاولي من أجلي مرّة أخرى.

- لا فائدة يا بني، إنّ ما تطلبه منّي مستحيل.

صمتَتْ للحظة، وقالت:

- من الأفضل ألّا تحلم كثيراً بما تفكّر فيه، يا جنكيز.

وظلّت «أمي» طوال مدّة وجودها في غرفتي واقفةً تنتقل من مكان إلى آخر، من دون أن تشعر بأيّ تعب أو إرهاق، محاولة أن تطمئنّ على صحّتي المتدهورة يوماً بعد يوم، وكانت تعي تماماً أن المرأة في ظلّ المجتمع الذكوريّ المتخلِّف لا رأي لها، ويبقى ذلك المجتمع أسير العادات والتقاليد البالية؛ إذ تُنفَّذ الأحكام بالقوّة والنار بحقّ أفراده، وتُقيَّد الحرّيّات الشخصية وتقوَّض، بل إنها تُوأد وهي ما تزال في المهد، ولهذا هي عاجزة عن أن تقدّم لي أدنى مساعدة في العزف على الآلة الموسيقية.

ولو علم «أبي» بما كان يجري من وراء ظهره، وداخل أسوار قلعته المحصّنة، ولو عرف أن رياح التغيير تعصف بأحد أبنائه الذي اتخذ قراره بترك الدراسة والتعليم، والسير في طريق الفنّ والموسيقا، لاتّخذ

بحقّ «أمي» المسكينة قراراً مصيرياً صعباً لا رجعة فيه، ألا وهو الطلاق أبغض الحلال إلى الله تعالى.

كانت «أمي» تفهم طريقة تفكير زوجها الرجعي المتخلف الذي هو «أبي»؛ لأنها قضت معظم سنوات عمرها إلى جانبه؛ وكانت تعرف أنّه لن يقبل بأي حال من الأحوال أن يتعلّم ابنه على آلة البزق هذه. وفي مرات كثيرة كانت «أمي» تشدّ على يدي، ولكنها خوفاً من بطشه كانت تبدي أنها تقف في صفّه ضدّنا، وأنّها مقتنعة بقراراته، والقاعدة معروفة في هذه الحياة: الصراع في البقاء للأقوى دائماً.

ومن هذا المبدأ راحت «أمي» تناور بطريقةٍ ما أو بأخرى، وبأسلوب دبلوماسيّ، لتقطع عليّ حبل الأمل والرجاء في تحقيق رغبتي، ولتخفّف من حدّة المواجهة بيني وبين «أبي»، فقالت:

- لن تتعلّم العزف على آلة البزق في حياتك، يا جنكيز.

حين سمعت هذا الكلام الصادم الصاعق، أصبحتُ كتمثال من الرخام البارد، وقلت لها:

- بأيّ حقّ تقولين هذا الكلام القاسي يا أمّاه؟

لقد تأثّرت كثيراً بكلامها، وتعجّبت من أسلوبها غير الحكيم في معالجة الأمور، فبدلاً من أن تخفّف من غضبي زادت ناري اشتعالاً، وعوضاً من أن تحمّسني حطّمت معنوياتي، ثم أردفت قائلةً:

- ما أقوله هو الحقيقة ليس إلا، يا جنكيز.

- أيّة حقيقة هذه التي تقولينها؟

- أنتَ من سلسلة الأسياد والأخيار، يا بني.

- أتقصدين أنهم خارقون للعادة؟! ليس هذا إلا قصص وأساطير الأولين.

كانت «أمي» تعرف في سرّها جيداً، أنني كنت أتعلم بسرعة البرق العزف على تلك الآلة، وباتت واثقة ومقتنعة بهبوب عاصفة وشيكة من الأزمات والمشاكل التي كانت تلوح بوادرها في سماء البيت المظلم، وقد تنذر بحدوث الكارثة العظمى في أي وقت عاجلاً أم آجلاً، بيني وبين «أبي إبراهيم». لذا خرجت من غرفتي خائفة مذعورة، وهي تحسب ألف حساب لِما سيحلّ لاحقاً، وصفقت الباب من ورائها بقوّة.

- 5 -

غادرت «أمّي» الغرفة وتركتني وحيداً مع أحزاني، مشتَّت الذهن شارد الفكر، تتقاذفني أمواج من الأفكار المتناقضة، ولا أعرف ماذا أفعل، فأجهشت في البكاء بين جدران غرفتي المحصنة، حتى كادت تغرقني، وباتت حالي مماثلة لحالة مركب وحيد يمخر عباب بحر هائج من الهموم والأحزان، وغدا عرضة للأمواج العاتية التي تقذفه وتلعب بمصيره.

كنت على يقين تامّ من أنّ «أبي» لن يقبل بأيّة تسوية أو حلّ يتعلق بممارستي العزف على آلة البزق الوترية، وعليّ ألّا أفكر فيها بعد اليوم، وأن أتركها إلى الأبد.

ثم فكّرت برويّة وتأنٍّ، وعرفت في ذاتي الحزينة أنّ لكلّ قفل مفتاحاً، فأقنعت نفسي بأنه علّني أجد هذا المفتاح يوماً ما إذا بحثت عنه بجدّ ونشاط، وسألت نفسي في تلك اللحظة الصعبة:

- أين أجد مفتاح أبي؟ هل هو في لجّة أعماق البحار المظلمة؟ أو يا ترى هو في قاع سَقَر، وعليها تسعة عشر؟

ومع مرور الأيام، وتراكم الأحزان، أدركت تمام الإدراك ضياع المفتاح، وأنني لن أجده مرّة أخرى، وبذلك أضعت معه الآمال والأحلام، وبقيت عندها تحت رحمة الأقدار.

- 6 -

أصبح الوضع في البيت لا يطاق، وقد لاحظ أبي انزوائي في غرفتي، ولفتَتِ انتباهَهُ سحابةُ اليأس التي تخيّم على سويداء قلبي، فقرّر -بعد الانتهاء من عمله الشاقّ ظهراً- أن يزور أستاذ المدرسة التي كنت أدرس فيها في بيته، كي يسأله عن الترتيب الذي وصلت إليه في نهاية الفصل الأول من العام الدراسي، فوقف على ناصية الشارع مهموماً حزيناً، ورأى سيارة صفراء قادمة نحوه، فأومأ بيده لها، فتوقّفت أمامه، فصعد وقال للسائق:

- خذني إلى دوار حيّ الخليج من فضلك.

وحين نظر « أبي» في وجه السائق عرفه في الحال؛ إذ كان صديقاً قديماً له من أيام الدراسة، وكذلك عرفه السائق، فتعانقا عناقاً حاراً طويلاً، وأخذا يتساءلان عن أحوال بعضهما، وبعدها عن حال أولادهما المادية والدراسية، وكان يدرك كلّ واحد منهما معنى متانة صداقة الطفولة، وقوّتها التي تجعلها خالدة في ذاكرة الطرفين، فلا يمكن للمرء أن يسقطها بسهولة من حسابات ذاكرته، فهي تبقى محفورة فيها للأبد.

وكان السائق موظّفاً لدى وزارة الأوقاف الدينيّة؛ يعمل مؤذّناً في الجامع، وعقب الصلاة يخرج للعمل على سيارة الأجرة من أجل كسب لقمة عيشه وإعالة أسرته.

وحين اقترب من دوار حيّ الخليج، أومأ له والـدي إلى المكـان الـذي سينزل عنده، ثم ربّت على كتفه وبِيده الأجرة، وقال له:

- تفضّل يا صديقي الشيخ.

وعندما رأى السائق الجليل الأجرة في يد صديقه، قاطعه بسرعة، وقال له معاتباً:

- بالله عليك ألا تخجل من نفسك، يا رجل.

- هذا باب رزق يا شيخي.

- صحيح، ولكن ليس بين الأصدقاء حساب وأجر.

ولكنّ أبي ألحّ عليه، وأقسم عليه أن يقبلها، فأخذها منه على اسـتحياء، ثم توقّف في المكان الذي حدّده لـه والـدي. فترجـل «أبـي» مـن السـيارة الصفراء، وودّع صديق الطفولة قائلاً له:

وداعاً يا أبا عليّ.

- 7 -

ارتديت قميصي الأسود، وبنطالي الأزرق المخمليّ، استعداداً للخروج من غرفة الكآبة والشقاء، لا أعرف إلى أين أتوجّه، لقد أصبح فكري وخيالي يغلي كمرجل داخل قوقعة رأسي، وقرّرت التوجّه إلى شارع المعهد الزراعي القريب من مطار القامشلي، حيث مدخل المدينة.

سرتُ في الشارع مهموماً، مشغول البال، منكسر النفس، بطيء الخطى، وكانت يدي محشورة في جيب بنطالي، ورأسي مطأطَأ نحو الأسفل، ثمّ نظرت إلى الأعلى، فرأيت طيراً وحيداً صغير الحجم، يحلّق بعيداً في الأفق، ثمّ أصبح نقطة سوداء قاتمة، واختفى في كبد السماء الزرقاء ذلك الحين.

انتابني إحساس غريب عجيب في تلك الوهلة؛ إذ شعرتُ بشيء مشترك بيني وبين ذلك الطائر الوحيد، ولكنّ صوت مزمار سيّارة عابرة كانت تلفّ على ناصية الشارع، أعادني إلى الواقع بعد ذلك، وفجأة وجدتُ نفسي أمام بيت صديقي «علي» ابن السائق الشيخ الذي كانت تربطني به صداقة قويّة، بل ثمّة رابط أقوى يجمع بيننا، هو أننا كلينا نهوى العزف على آلة البزق، وموقف أبيه يشبه موقف أبي المتشدّد، بحكم عمله، فهو شيخ يؤذّن في الجامع.

قرعت البابَ، ففتح صديقي «عليّ» واستقبلني بابتسامة عريضة قائلاً:

- أهلاً وسهلاً بك، يا جنكيز.

وأضاف بمكر:

- تفضّل بالدخول يا صديق التعاسة والدرب الحزين.

- أشكرك جزيل الشكر على هذا الاستقبال الحارّ.

ثمّ رنا إلى وجهي، فلاحَظ شحوبه، فسألني:

- لماذا وجهك شاحب شحوب الأموات، يا جنكيز؟

- لقد حطّم أبي آلتي الموسيقية.

فقال «علي» مندهشاً:

- عزفك على الآلة كان رائعاً، يا جنكيز.

فقلت له قانطاً:

- لكنْ ما الفائدة من ذلك وأبي لا يقبل بأيّ شكل من الأشكال أن أمارس العزف على تلك الآلة في منزله المقدس؟

ثمّ أضفتُ بحسرة، بعد أن تنهدت تنهيدة عميقة:

- أهلي يريدون أن أصبح طبيباً.

سحبني من يدي بعصبية وقال بغضب:

- ليس من حقّهم أن يفرضوا عليك شيئاً لا ترغب فيه.

عاجلته وقتها بالردّ:

- وأنت أيضاً تعاني من المشكلة نفسها، يا علّوش.

تهرب من الإجابة بدايةً، ثمّ عقّب قائلاً:

- ولكنّ عزفي على الآلة كان ضعيفاً، ولست بمستواك المتقدّم في العزف.

ثمّ أخبرته أنني خرجتُ في هذا الوقت من البيت، لأن الوضع كان كئيباً بائساً، وشكوت له معاناتي قائلاً:

- أكاد أختنق غيظاً وحنقاً، يا صديقي.

- هدّئ، من روعك، يا جنكيز.

- حسناً.. حسناً.

دار كلّ الحديث السابق بيننا ونحن واقفان في فناء الدار، حيث الأشجار والأزهار التي تبعث في النفس الراحة والهدوء، وسألت «علياً»:

- أين أهلك؟

أشار «عليٌّ» بيده نحو أبواب الغرف المغلقة، وقال:

- انظر، يا جنكيز أنا وحيد في البيت اليوم.

فقلت له:

- ما أجمل الوحدة والهدوء!

- ليس دائماً كما تعتقد.

ثمّ أضاف «عليّ» متسائلاً:

- هل ترغب في أن تكون وحيداً؟

قلت له بثقة:

- إذا كان من أجل العزف نعم، وألف نعم.

أراد «علي» بعد هذا الحديث الطويل، أن يوضّح وجهة نظره من مسألة الوحدة فقال:

- حتى الجنة نفسها، يا جنكيز، إذا خلت من الناس فإنها لا تُطاق، لأن الوحشة قاتلة، والوحدة قاسية، يا صديقي.

فدفعني فضولي الجارف إلى أن أسأل «عليّاً» عن أبيه الشيخ:

- أين ذهب خالي الشيخ حسين؟

أجاب «علي» باستهزاء:

- ذهب خالك الشيخ إلى الكازينو، إلى الملهى.

- أتسخر مني يا صديقي علوش؟

لم أصدّق أبداً أن صديقي «علي» أيضاً كان يحقد على أبيه إلى هذه الدرجة، وقلت بشيء من عدم التصديق:

- لم أسمع في حياتي قطّ، أن شيخاً جليلاً ذهب....

- تقصد إلى ذلك المكان...؟

- نعم.

لقد عرفت في سرّي، أنّ قلب صديقي «علي» كان ممتلئاً حتى آخره بالحقد والكراهية على أبيه الشيخ حسين، وبتّ واثقاً ومقتنعاً، أن الجنة والنار لا يجتمعان في مكان واحد، وكذلك بالنسبة للموسيقا والدين، هذا

ما شعرته، وأحسسته في ذاتي.

لكنّ صديقي «علياً» بدا متحمّساً أكثر في شنّ حرب كلامية حامية الوطيس على أبيه الشيخ عندما قال:

- شيخك الجليل قدّس الله سرّه يحبّ النساء، وبخاصة الفتيات الصغيرات.

نظرت في تلك الوهلة إلى السماء، ورأيت قرص الشمس متوهّجاً، ثمّ نظرت إلى «علي» فقلت:

- هل تقصد أنه يملك قلباً رقيقاً، وحنوناً؟

ردّ «علي» بسرعة:

- دائماً أراه أمام المرآة يشذّب لحيته الكثّة وشاربيه.

- ألا تريد أن يكون أبوك أنيقاً نظيفاً؟!!!

- بلى، ولِمْ لا؟

- فلماذا تقول هذا الكلام البذيء عن أبيك الشيخ؟

أطلق «علي» تنهيدة عميقة لا يعلم سبر غورها إلا الله سبحانه، وقال:

- لقد حطّم أبي ثلاث آلات وترية خلال هذه الفترة فقط، يا صديقي جنكيز.

وظهرت على شفاهه ابتسامة ممزوجة بالحزن والأسى، وأضاف:

- قد تكون الرابعة على طريق التحطيم، والعلم عند الله.

قاطعت صديقي «علياً» بصوت منخفض قائلاً:

- آلتي الموسيقية هي الأولى التي حطّمها أبي.

- لَمْ تتعقّد الأمور معك بعد يا جنكيز، وإن أبي وأباك متشابهان، وأراهنُ أنهما من طينة واحدة.

ثمّ تابع صديقي «علي» قائلاً:

- كنت أعرف، أن أباك سيحطّم الآلة، يا جنكيز.

أردت الاستفسار منه أكثر من ذلك، فسألته:

- وهل تتوقع المزيد من الكسر؟

- ربّما.

- برأيك ما الحلّ الأمثل؟

- لا أعرف.

طرحت عليه سؤالاً أصعب هذه المرة:

- إذاً مَن يعرف يا صديقي علي؟

- يا جنكيز، قدرك هو الذي يعرف ويقرر.

- ومتى يأتي هذا القدر؟

- الله وحده عالم الغيب.

أدركت من حواري معه أن بؤسه وشقاءه ليس بأقل مما أعانيه، ولكن دائماً كان يتظاهر أمامي بأنه أقوى من تلك الظروف التي كنّا نمرّ بها معاً.

- 8 -

بعد ذلك الحوار الطويل في فناء الدار، دعاني «عليّ» للدخول إلى غرفته، حيث يخفي فيها عن أنظار الشيخ حسين -قدس الله سره- الآلة الوترية التي لمّا تتعرّض للتحطيم والكسر بعد، وقال لي:

- تفضل إلى الداخل كي نستمتع بعضَ الوقت بالعزف على آلة البزق.

ضحكت ضحكة مريرة، لم تكن نابعة من روحي، بل ربما من حَجرٍ صلد، وقلت:

- شكراً على هذه الدعوة الكريمة.

لفتت انتباهي داخل الغرفة صورة ذات إطار ذهبي معلّقة على الحائط، وكانت الصورة لشيخ جليل لحيته بيضاء، وعلى رأسه عمامة بيضاء، فسألت صديقي «علياً»:

- لمن هذه الصورة؟

- لشيخ جليل يتعلّم عنده والدي علوم الفقه والدين.

اعتقدت للوهلة الأولى أنّ صاحب الصورة واحدٌ من أجداد عليّ، فسألته للمرة الثانية:

- من أين هو؟

أراد بحركات من يده ورأسه أن يبين أنها قريبة من مدينة القامشلي،

فسألته مرة أخرى:

- ماذا يقدم هذا الشيخ للناس؟

- يذهب إليه الناس، من أجل التوبة النصوح.

وتابعت مستوضحاً:

- وهل تجوز التوبة لغير الله؟

- أعتقد أنها لا تجوز.

تبع بعد ذلك صمت وسكون، ثمّ أضاف «علي»:

- ذات مرة، ذهبت إلى هناك مع أبي الشيخ.

فقلت له مستفسراً:

- ماذا فعلتم هناك؟

قال مقهقهاً بصوتٍ عالٍ:

- أكلنا الشوربة.

فسألت للتأكّد:

- أذهبت إلى هناك من أجل الشوربة؟!!

- ربما أَصَبْتَ بقولك هذا يا جنكيز، قالها بسخرية.

- هذا آخر سؤال، من المتحرّي جنكيز: هل شيخك هذا هو مَن طلب من أبيك أن يحطِّم الآلة الوترية؟

- لستُ متأكّداً.

وبينما كان صديقي منهمكاً بإزاحة الستائر المنسدلة على النافذة، من أجل دخول ضوء الشمس إلى وسط الغرفة، كنتُ أدقّق في كلّ شيء يقع تحت بصري داخل غرفته التي نالت المرتبة الأولى في موسوعة غينس للأرقام القياسية في تحطيم آلة البزق.

والتفتَ «علي» نحوي ليكشف عن الغرض من الزيارات التي كان يقوم بها مع أبيه، فقال:

- كنت أذهب بمرافقة خالك الشيخ إلى هناك...

فقاطعته قائلاً:

- من أجل أن تسلك طريقة الشيخ في الدين؟

أجاب «علي» ساخطاً:

- نعم، ولكنّي لا أحب أن أكون مِثلَهُ شيخَ الطريقة.

- ولكن هو يريد ذلك!!

- أعرف أنها رغبته بالدرجة الأولى.

وأضاف قائلاً:

- وأنت يا جنكيز؟!

- وأنا ماذا؟

أراد صديقي «علي» أن يعرف رغبتي الحقيقية، فقلت له:

- أنت تعرف قبل الآن رأيي.

- تريدُ أن تصبح فنّاناً موسيقيّاً؟

- أجل.. أجل.

تأمّل صديقي «علي» وجهي الأصفر، وقال:

- ينتظرنا المصير نفسه، أحسّ بذلك دائماً.

ثمّ سألته باهتمام:

- ما المصير الذي ينتظرنا معاً برأيك، يا عرّافي الصغير؟

أرجع ظهره إلى الخلف على الكرسي، ثمّ قال:

- أن نبتعد عن هذا الطريق الذي يخالف شرائع الله، ونختار طريقاً آخر غيره.

قلت باستياء:

- تقصد أن نترك الموسيقا والفن؟

- نعم.

لقد بتُّ على قناعة تامّة، أنّ روحي ستبقى روحاً معذّبة إلى الأبد إذا تركت العزف على آلة البزق الموسيقية، وها هو «علي» يريد أن نترك الموسيقا، ربّما صدق حين قال: إن عزفه ضعيف، أو ربّما تأثّر بفكر أبيه الشيخ «حسين».

- 9 -

وقف «أبي» أمام بيت الأستاذ «صالح»، وقبل أن يضغط على جرس باب شقّته، أخرج مشطه من جيب قميصه، ومشّط شاربيه، وشعره الأسود. وكانت تلك من العادات التي لزمت «أبي» طَوال مدّة شبابه، وما زالت مستمرة إلى زمن كتابة هذه الرواية. وإنني أشكر لله أنني لم أكتسب منه هذه العادة؛ إذ كان الاهتمام بمظهره الخارجيّ وأناقته من الأولويات لديه.

ضغط بإصبعه على جرس الباب، وكرّر هذه الحركة ثلاث أو أربع مرات من دون انقطاع، حتّى فتح الأستاذ صالح سليمان الباب، وابتسم في وجهه قائلاً:

- أهلاً بك يا أبا جنكيز، على الرحب والسعة، تفضل بالدخول.

لم ينعم الله على الأستاذ «صالح» بشكل حسن، لكنّه كان يملك حسّاً رقيقاً، وقلباً طيباً بين أضلاعه، وكان يتسامح مع تلاميذه، وكان يتعب كثيراً معهم من أجل أن يصل بهم إلى أفضل مراحل التعليم، وكان معروفاً عنه أنه صاحب ضمير ووجدان غير مسبوقين.

صافح «أبي» الأستاذ على عتبة الباب الخارجي لشقته، وحين دعاه للدخول، سار وراءه في الممرّ الضيق، حتّى وصل إلى آخره حيث المطبخ، ثمّ جلس «أبي» إلى الطاولة الخشبية المصنوعة من خشب البلّوط ذات اللون البنّي الغامق، وقد غزا سطحها حفر وأخاديد صغيرة بفعل مرور الزمن عليها،

وظلّ في ذلك الوقت الأستاذ «صالح» واقفاً، وبيده إبريق الشاي الساخن، وكان ينظر إلى «أبي» نظرة شكّ وريبة، ثمّ وضع إبريق الشاي على الطاولة أمام «أبي»، وجلب من الخزانة الصغيرة قَدَحين فارغين، ووضعهما أمام الإبريق، ثمّ صب الشاي الساخن فيهما، وفعل كل هذا في صمت. رشف «أبي» رشفة صغيرة، ثمّ بدأ الحديثَ بصوت يشبه الحشرجة:

- جئت أسأل عن وضع تلميذك جنكيز إبراهيم.

نقر الأستاذ برأس إصبع سبّابته على الطاولة، وقال:

- لابأس، يا سيدي.

قطب «أبي» جبينه متسائلاً:

- هل مازال جنكيز، من الأوائل بين أترابه؟

- لا أعتقد، يا سيدي.

- لماذا لا تعتقد، يا أستاذ صالح؟

هزّ الأستاذ بكتفيه قليلاً، ثمّ قال:

- كان مستواه في العام الماضي أفضل من هذا العام بكثير، يا أبا جنكيز.

كان «أبي» يعرف السبب، ولكنّه كان مصمّماً على معرفة السبب الذي أدّى إلى تدنّي مستوى ابنه من الأستاذ نفسه، فسأله:

- هل تستطيع تحديد السبب، توضيحه لي من فضلك، يا أستاذ صالح؟

كان الأستاذ «صالح» يعرف سبب انخفاض مستوى تلميذه التعليمي

في هذا العام بخلاف الأعوام السابقة؛ إذ إنّني ذات يوم أخبرتُه بموهبتي في العزف على آلة البزق، وأطلعته على معاناتي مع والدي، وعلى عدم احترامه لموهبتي، ولكنّه لم يشأ أن يصرّح لأبي بما يعلم، وأراد أن يوصل الجواب بأسلوب غير مباشر لضيفه، فقال له:

- لا أعرف السبب في تدنّي مستواه، ولكنّ هذا الجيل يلزمه هامش من الحرية ولا سيّما في هذه السنّ يا سيدي العزيز.

ردّ «أبي» على الأستاذ بعصبية:

- أيّة حرية بحقّ السماء، يا أستاذي الكريم ؟ وكيف أتركه يتصرّف بكامل حريته؟

أجاب الأستاذ بهدوء:

- جنكيز تلميذ ذكيّ ونشيط. هو في مرحلة المراهقة من عمره، وبحاجة ماسّة وضرورية إلى العناية والاهتمام به، وله وضع خاص...

قاطعه أبي وقال بنزق:

- لا تنسَ أننا مررنا بهذه المرحلة، ولم نكن بحاجة إلى تلك الحرية التي تتحدَّث عنها الآن، يا أستاذ.

وقف الأستاذ «صالح» وقال:

- ما كانت الأوضاع هكذا على أيامنا السابقة.

- تريد أن تقول لي: إنه عصر تطوّر العلم والتكنولوجيا الحديثة يا أستاذ؟!

ثمّ جلس الأستاذ «صالح» بارتياح وقال:

- بالطبع. عصر جنون العلم والتكنولوجيا.

كان الأستاذ «صالح» يؤمن بالعلم ونظريّاته الفيزيائية التي تفسّر تكوين الكون ونشأته الأولى حسب التفسير العلمي، والفلسفة المادية الإلحادية عكس «أبي» الذي كان يؤمن بالميتافيزيقا والغيبيات، ثمّ أضاف الأستاذ:

- الإنترنيت قد غير العقول، وأثّر فيها تأثيراً كبيراً.

أجاب «أبي» بكلّ فخر واعتزاز:

- الدين أيضاً قد غير من العقول التي كانت تعيش في عصور الجهل والظلام على مدى الأزمنة السابقة.

ردّ عليه الأستاذ بكلّ جرأة قائلاً:

- قيّد بعض الأشياء وحرّمها.

- أفصِحْ عن تلك الأشياء التي ترى الدين قد حرّمها، يا أستاذ.

- حاربَ الموسيقا، وحرّم العزف على الآلات الموسيقية المختلفة.

- تريد أن تحضر بذلك الشياطين، والأرواح الشريرة يا أستاذي الفاضل؟!

توقّف الأستاذ «صالح» عن الحوار والمناقشة، وعرف أنه وصل إلى طريق مسدودة، وأن عقليّة «أبي» من العقليّات الصعبة والممانعة في قبول كل ما هو مخالف لتعاليم الدين وشرائعه الأساسية، وستكون ردّة فعله سلبية، إذا تطوّر النقاش أكثر من ذلك، ثمّ أكّد لأبي أنه ينبغي على الأهل في

هـذه المرحلـة مـن عمـر الأبنـاء، أن يرخـوا لأولادهـم الحبـل قلـيلاً، ويمنحوهم بعض الحرية، كي يتمّ العبور إلى الضفة الأخرى مـن الشـاطئ بأمان وسلام، لأن المراهق يعتقد أنّه بات شابّاً ناضجاً واعياً، ومن حقّه أن يكون له رأي، ولذلك التساهل ضروري معه في هـذه المرحلـة الحسّاسـة من العمر، وبالتالي أيّة زيـادة في الضـغط عليـه، وأيّ حجـب لحريتـه، قـد يؤديان إلى عواقب وخيمة، ويقودانه إلى نتائج قد لا تُحمَـد عُقباهـا، ومنهـا على سبيل المثال الانتحار.

كان «أبي» في هذا الوقت يُنصـت باهتمـام بـالغ إلى محاضـرة الأسـتاذ «صالح» بشأن سنّ المراهقة، وحين أنهى محاضرته قال له «أبي»:

- لقد بذلتُ ثمناً غالياً يا أستاذي الفاضل.

- ما الثمن، يا أبا جنكيز؟

- صحتي، وعمري، يا أستاذ.

- بالطبع يا سيدي، وأنا معك فيما تقوله.

ولكن الأستاذ «صالح» كان يريد أن ينهي الموضوع بخير وسلام، فقـد اتّضح له بما لا يدع مجالاً للشكّ، أنه لا يمكن بأي حال مـن الأحـوال أن يقنع «أبي»، وأنه يستحيل أن يجعله يوافق على قبول آلة البزق في بيتـه، وأن أمارس العزف عليها بكلّ حرّيّة.

- 10 -

في تلك الأثناء كنتُ «أنا» وصديقي «علي» في بيته مستمتعَينِ بالعزف على آلة البزق الوترية، وهي تنشر جنود إبليس –كما يرى أبي– من حولها. بعدها قام «عليّ» بتعليقها على المشجب، وأخفاها بملاءة السرير خوفاً من جولات الشيخ «حسين» التفتيشية لتحطيمها بغية القضاء على جنود الشيطان وطردهم من منزله المقدّس الشريف، لأنهم يدنّسون بيته.

خرجنا من بيت صديقي «علي» إلى السوق المركزي، قاصدين الذهاب إلى دار الموسيقا هناك... وصلنا إلى باب المحل، وكان في الواجهة المزجَّجة للمحل بعض الآلات الوترية، والعياذ بالله من شرورها وآثامها.

نظرتُ إلى تلك الآلات الموسيقية المعروضة في الواجهة بفنٍّ وإتقان نظرةَ ألم وحسرة ممزوجة بمرارة الفقد، وكانت تلك الآلات متنوعة الأشكال والألوان. منها ما هو بلون الفحم الحجري، ومنها ما هو باللون الأحمر القاتم، وعلى الطاولات وُضِعت آلات البيانو والكمان، وعلى الأرض وضعت الدفوف الصغيرة والكبيرة، وفوق الرفوف العليا كانت مكبّرات الصوت المختلفة، وعلى كل آلة ألصقت قصاصة ورقية صغيرة، دُوِّن عليها الثمن.

قرّرت مع صديقي الدخول إلى المحلّ، فسبقني «علي» في الدخول، وقال بصوت جهوريّ:

- السلام عليكم يا عم.

كان صاحب محل الآلات الموسيقية في السوق يجلس وراء طاولته البلورية، وكان يعزف على آلة الكمان لحناً شجياً رائعاً، وكانت تجلس بجانبه فتاة شقراء ذات جمال فاتن، وكانت إشراقة وجهها تضيء ذلك المكان وتزيده جمالاً، فتوقّف العازف عن العزف مباشرة، وردّ السلام، ثمّ سألنا:

- هل تريدان شراء آلة موسيقية؟

فأجاب صديقي «علي» بخجل:

- لا نملك نقوداً كافية للشراء، يا سيدي.

نظر صاحب المحلّ إلى وجه «علي» المشرّب بحمرة الخجل، وقال له:

- إذاً ماذا تريدان أيّها الشابّان؟

كنتُ حاضراً معهم جسداً، في حين كانت روحي منتشيةً مبتهجةً بسحر منظر تلك الآلات، ولا سيّما البزق، بعيدةً عمّا يدور بين الطرفين من نقاش، وكانت الأفكار تتدفّق متوالية داخل قوقعة رأسي، حيث بات جسدي المرهق في مكان، وحملت تلك الآلات روحي المعذّبة إلى عالم الموسيقا الساحر، ولم أشعر قطُّ بما كان يدور من حولي، وكنتُ أدرك أن جسم الإنسان بحاجة ماسة إلى الغذاء، كي يمدّه بالقوة والطاقة، من أجل العيش والعمل معاً، كما أنّ روحه أيضاً تحتاج إلى غذاء، والموسيقا هي ذلك الغذاء، بل الدواء أيضاً للروح والجسد معاً، فهي تسرّ القلوب، وتبعث في النفس السكينة.

أحسّ صديقي «علي» بغيابي الروحي، وأدرك أنّي أحلّق بخيالي بعيداً عن الحضور، فضغط على ساعدي الأيمن، لأعود إلى الواقع، ومازح صديقي صاحب المحل -وهو يختلس النظر إلى الفتاة- قائلاً له:

- أتينا نتأمل جمال هذه الآلات، ونمتّع ناظرينا بسحر منظرها.

- أنت تمزح بالطبع، يا ولدي.

- لا. أردنا رؤيتها فقط، وهل هي بالنقود؟

ردّ عليه صاحب المحلّ بحزم:

- نعم، فالنظر هنا بثمن.

فقال «علي» مذهولاً:

- ماذا تقول بحقّ الله؟ هل المشاهدة ممنوعة؟

فأجابه وهو يضحك:

- لا، إنني أمازحكَ، وإذا أعجبتكما واحدة منها، يمكنكما العزف عليها بكلّ حرّية.

أجابه «علي» بغبطة وسرور:

- أشكرك من كلّ قلبي، وأكرّر الشكر نيابة عن صديقي.

أراد هذا الفنان المحترفُ المدركُ لمعاناة جيل الشباب، والمطّلعُ على محاولات ذويهم قتلَ مواهبهم أن يدخل السعادة والسرور إلى قلوبنا، ويشجّعنا على التمسّك بآمالنا. فقدّمنا اعتذارنا له، وغادرنا المحلّ، ثمّ خرجنا إلى الشارع العام، حيث الهواء الطلق.

- 11 -

استأذن «أبي» الأستاذَ «صالح سليمان» وهمّ بالانصراف، متوجّهاً نحو الباب. فتحه، ثمّ وقف على عتبته، وقال بصوت كسير:

- لي رجاء عندك يا أستاذ صالح.

- قل ما هو، يا أبا جنكيز؟

- عدم التساهل مع ابني مطلقاً بشأن تحضير واجباته المدرسية.

- هذا من دواعي سروري، يا سيدي العزيز.

وقال «أبي» واثقاً من نفسه:

- كان دائماً الأول على أصدقائه في الدراسة.

أجاب الأستاذ «صالح» داعماً ما يقوله «أبي»:

- أعرف هذا، إنه من التلاميذ النشيطين والمتفوقين دراسيّاً.

- لا أصدّق تراجع مستواه التعليميّ.

- ولا أنا أيضاً.

- أرجو منك، يا أستاذ «صالح»، المزيدَ من الاهتمام به، وعدم التساهل معه ما أمكن. وسأعاود زيارتك مجدّداً للاطمئنان عن مستواه الدراسي، إن شاء الله.

- مرحباً بك دائماً وأبداً، يا أبا جنكيز.

- إلى اللقاء، يا أستاذ.

- إلى اللقاء، يا سيدي العزيز.

- 12 -

تابعتُ مع صديقي «علي» السير في السوق، حتى وصلنا إلى جسر (نهر جقجق) في مدينة القامشلي المشهورة بتسميتها بمدينة الحبّ، ففيها تتعايش ثقافات متنوّعة، ومكوّنات متعددة؛ من كرد، وعرب، ومسيحيين، ومع أن أغلب سكّانها من الأكراد، فإنّ شعار أبنائها الأساسي عامّةً هو الحب والأخوّة والتعاون فيما بينهم.

كان الجسر مسوّراً من طرفيه بدرابزين من الحديد، فتوقّفنا على متن الجسر، وأسندت ظهري إلى الدرابزين، ونظرت بعيداً باتجاه الشمال، حيث تنبع المياه وتتدفّق، وكان الوقت بعد الظهر، فهبّت نسمة باردة من الهواء لفحت وجهي، وظهرت بعض الغيوم المتفرّقة في السماء على أشكال الخراف البيضاء، وكان الجسر مزدحماً بالمارّة القادمين من السوق والعائدين إليه، وكان فكري يسرح بعيداً، كبُعدِ مصبّ النهر الذي تنبع منه.

أمّا صديقي «علي» فراح يتجاذب أطراف الحديث مع الباعة المتجوّلين، وينظر بإمعان إلى المارّين من أمامه، وهو في غاية الراحة والانشراح الروحي، ثمّ لفت انتباهي إليه وقطع شرودي حين أصدر من بين شفتيه الغليظتين صوتاً يشبه زقزقة العصافير، قائلاً:

- كفاك حزناً وتعذيباً لنفسك، يا جنكيز.

- صدى كلامك يتردّد في سمعي مثل رنّة الجرس.

- أيّ كلامٍ؟ ما عدت أذكر.

- أنت مثل الذبابة، يا علي تنسى بسرعة.

ثمّ ذكّرته بما قال لي سابقاً:

- قلت لي: إنّ أباك سوف يحطّم آلتك الموسيقية، وإن أبوينا متشابهان.

- تقصد آلة الشيطان التي سمّاها أبي الشيخ بهذه التسمية.

- نعم... نعم.

أراد «علي» أن يخفف عني عبء التفكير، فقال:

- إن الإفراط في التفكير بمشكلتك سيجلب لك القلق، ويولّد عندك عدم راحة البال.

فقلتُ له و«أنا» في حيرة من أمري:

- هل هناك أمل، أو أدنى حلّ يلوح في الأفق؟

- لا أمل في الوقت الراهن، يا جنكيز.

وخيّمت لحظة من الصمت والسكون بيني وبين «علي»، حين مرت من أمامنا فتاتان كانتا على قدر كبير من الحسن والجمال، لقد طار لبه عند رؤيته لهما، وثبت بنظره عليهما، إلى أن أصبحتا خارج نطاق رؤيته، فقلت له:

- احم احم، نحن هنا.

نظر إليّ وقال مبتسماً:

– أنا مرهف الحسّ والشعور، يا صديقي، ولا أحتمل مقاومة هذه المشاهد المثيرة.

فسألت صديقي «علياً»:

– هل تحبّ الفتيات الجميلات كثيراً؟

أجاب بسرور:

– حملت فيروس الحبّ من خالك الشيخ.

– هل هذا المرض متوارث في العائلة؟

قبض «عليٌّ» براحتي يديه على شبك درابزين الجسر الحديدي، وضرب بكعب قدمه الأيمن على الأرض عدة مرات مُصدراً بضرباته تلك نغمة ذات إيقاع موسيقيّ، ثمّ التفت باتجاهي وقال:

– لم أذهب بعدُ إلى الطبيب للفحص.

ثم سألني:

– وأنتَ، ألا تحب الفتيات الجميلات؟

– لم أجرّب الحبّ بعد، وليس لديّ ميل إلى الفتيات يا صديقي.

أمسك بحصاة، ورمى بها مياه النهر المتّسخة لكثرة رمي القمامة والأوساخ فيها، فتشكّلت على صفحة الماء دوائر صغيرة، وبدأت تكبر وتكبر، وقال فجأة:

- ألست رجلاً، يا جنكيز؟

ثمّ ربّتُّ على كتفه، وابتسم «علي» في وجهي، فقلت له:

- أنا مغرم كذلك، يا صديقي.

فقال باندهاش وفضول:

- أخبرني، من هي بحقّ الله؟

- وما تفيدك معرفتها؟

- مجرد الفضول فقط.

وألحّ علَيَّ لمعرفة المزيد عنها، فقلت له:

- هل تساعدني، إذا أخبرتك؟

فهزّ «عليٌّ» شبك درابزين الجسر بيديه بعنف، وهو يقول بغضب:

- بماذا أساعدك أنا المسكين؟

- في إقناع أبي.

كشّر عن ضحكة خالية من الفرح والمرح، ثمّ قال:

- هل أنت واثق من أنك غير مصاب بالمسّ؟

- ما المسّ، يا صديقي علوش؟

- قصدي ألستَ مجنوناً؟

كان صديقي «عليّ» يعتقد من شدة تعلّقي، وشغفي بآلة البزق، أنني أصبحت مجنوناً، فقلت له:

- أنا بكامل قواي العقليّة والجسدية، وأنا متأكّد مما أقوله الآن.

فأصرّ «عليٌّ» مرة أخرى، أن يعرف اسم الفتاة وقال:

- أخبرني باسم صديقتك فقط، يا جنكيز.

- التي أحبّها الآن؟

- أجل، وفوراً.

أحسست عندها بحرقة في معدتي، وألم في حلقي فقلت:

- فتاتي قد لا تبدو لك جميلة، كفتيات هذا الوقت.

فكّر، وهو في حيرة من أمره، ثمّ قال:

- هل هي قبيحة، وبشعة لهذه الدرجة؟

- في نظري أنا، هي الأجمل في هذا العالم.

- لم تخبرني بقصّة حبّك هذه من قبل، يا جنكيز.

- لأنني عاهدتها ألّا أخبر أحداً بقصّة حبّنا.

أردت أن ألعب معه لعبة الفأر والقطّ قليلاً، وحين رأيت على مُحيّاه آثار الغضب قلت له:

- فتاتي عمياء.

تسمّر في مكانه كقطعة من جليد، وقال:

- حبيبتك لا تُبصر، وتحبّها أيضاً، يا للعجب!

- وصمّاء أيضاً.

- هل تسخر منّي، يا جنكيز؟

فقلت له، وأنا أتابع لعبتي معه، حتى النهاية:

- وعاجزة أيضاً لا تتحرّك.

قرص ساعدي قرصة شديدة، وقال:

- أنت تكذب عليّ، وحقّ الله، يا جنكيز.

فقلت له في شوق ولهفة:

- لا، فأنا عاشق ولهان.

قفز في الهواء، وصاح بصوتٍ جهوريّ، سمع صوته الملأ قائلاً:

- الله أكبر، يا روميو، يا ممّو، يا قيس.

ثمّ تابع في دندنة:

- هل اسم حبيبتك: جولييت؟ أو زين؟ أو ليلى؟

- ليس أيّ واحد من تلك الأسماء. حبيبتي تملك اسماً مميزاً لم يُسمَّ به أحد من البشر... اسم معشوقتي: (بُزق) وتكنّى بآلة الشيطان، فهل عرفت من هي؟ وهل ارتحت الآن؟

بدت عليه علامات الدهشة والخيبة معاً حين عرف محبوبتي الحقيقيّة، وأدرك ساعتها مدى حبي لآلتي، ومقدار تعلّقي بها. وسألني سؤال المشدوه:

- وهل تتعذب من أجلها كثيراً؟

- أجل.

- هل تتعذب مثل عذاب المحبّين؟

- بل أكثر مما تتوقّع.

وحين رأى على وجهي مسحة من الحزن والألم، لم يتمالك نفسه، وقال:

- هيّا نذهب من هنا، قبل أن تنفجر، وتتطاير إلى قطع وشظايا، مثل قنبلة موقوتة، فقلت باستهزاء:

- هل تخاف على الجسر من التدمير؟

- لا، ولكن لتنسى همومك قليلاً ليس إلّا.

فقلت له ممازحاً:

- وهل أرمي نفسي في النهر، من فوق الجسر، يا علي؟

- لا، لا، أنا أعرفك أعقل من ذلك.

- العاشق يصبح مجنوناً، إذا أحبّ بشغف، يا صاحبي.

- ليس دائماً، يا جنكيز.

- 13 -

غادرنا الجسر، ومشينا حتى وصلنا إلى زاوية بلدية القامشلي للخدمات، ثمّ قطعنا شارع الوحدة إلى الطرف الآخر بخطيى بطيئة، وكنا ننظر إلى البضاعة المعروضة في واجهات تلك المحلّات، وجدنا امرأة متسوّلة جالسة على رصيف الشارع، وفي حجرها رضيع صغير، وتنادي بصوت حزين وكئيب يقطع نياط القلب، وتقول:

أيها الناس، أنا أمّ اليتامى، وبحاجة ماسّة إلى المساعدة.

لم أستطع كبح جماح مشاعري الجيّاشة، وكاد قلبي أن ينفطر في تلك اللحظة، عندما سمعت هذا النداء، واقتربت منها قليلاً، وأعطيتها خمسين ليرة، وضعَتْها في جيبها بيدٍ مرتعشة، وقالت بصوت متهدّج:

- أعرف قراءة خطوط كف اليد.

- لم أُعِر أيّة أهمية لما قالته ذلك الحين.

- 14 -

غادر «أبي» منزلَ الأستاذ «صالح سليمان» مهموماً حزيناً، ولـوّح بيـده لسيارة الأجـرة الصـفراء، فوقفـت أمامـه، فـتح بـاب السـيارة، وولـج إلى الداخل، ثمّ جلس في المقعد الأمامي بجانب السائق، صامتاً لم ينبس ببنـت شفة غير السلام فقط، وحـين وصـل إلى السـوق، أعطـى السـائق الأجـرة المطلوبة ثمّ نزل.

لم يكن مزاجه على ما يرام بسبب هذا المشوار، لأنه فهم ما يخفي أستاذ المدرسة في جعبته، من أمور ومعلومات لم يفصح بشأني عنها له، وبخاصـة المتعلّقة بالموسيقا، ثمّ توجّه إلى مقهى الشـموع في زاويـة شـارع الوحـدة القريب من إشارات المرور الضوئية. كان المقهـى في الطـابق الثـاني، أمـا الطابق الأرضي فكان يحتوي على محـلات الخياطـة، ومحـلات الألبسـة الرجالية الجاهزة.

صعد «أبي» درجات السـلم بتثاقـل شـديد، والأفكـار حـول مسـتقبلي تتصارع في رأسه، فأحسّ بدوار خفيف يلفّ رأسه، ولمّا وصـل إلى البـاب الرئيسي دخل وسلم على المحاسب الجالس وراء طاولتـه الرخاميـة، ثـمّ توجه إلى آخر طاولة في الزاوية القريبة من النافذة المطلّة على مكتـب قطـع تذاكر الطيران، وكانت أغلـب الـرحلات مـن دمشـق العاصـمة إلى مدينـة القامشلي وبالعكس.

ثمّ جلس «أبي» وحيداً، وحدّد للنادل ما يحضره له، ووضع علبة الدخان على الطاولة، وجعل جبينه في راحة كفّه، واستند بمرفقيه إلى الطاولة، وكانت حالته يرثى لها، فكل من يراه يعتقد أنه تاجر غرقت باخرته التجارية التي حملت بضاعته الغالية والنفيسة في عرض البحر، وأنّ طابوراً من الدائنين يقفون في صف طويل، أمام بيته مطالبين بأموالهم المودعة لديه.

وبعد دقائق استعاد فيها أنفاسه، حمل إبريق الماء، وملأ القدح الفارغ، وكرعه في جرعة واحدة، وأخرج سيجارة من علبة دخان كلواز أحمر، ووضعها بين شفتيه بعصبية، وسحب نفَساً طويلاً أعقبه بزفرة طويلة ملأت سماء المقهى دخاناً، راح يتصاعد في الهواء، وفوق رأسه على شكل حلقات دائرية.

عاد «أبي» بذاكرته الضعيفة، إلى تلك السنة القاسية التي حلّ عليهم فيها شتاءٌ باردٌ قارس، وهطلت الأمطار الغزيرة والثلوج الكثيفة المستمرّة ليل نهار، فتعطّلت بسببها جميع الأعمال اليدوية، وتوقّف «أبي» عن العمل، ولم يكن يملك في منزله من مقتنيات غالية ونفيسة، سوى جهاز تلفازٍ صغير، وبرادٍ من نوع بردى، وكنّا نقيم تحت سقف كوخ حقير من الطين والقشّ، يطلق عليه اسم المنزل.

كان البرّاد قد غزاه الصدأ والاهتراء من الجوانب، وعلى الباب الأمامي، وُضعت صور لاصقة، لبعض أنواع الفواكه، وعندما ضاق

الحال ذرعاً بأبي اضطرّ إلى بيع جهاز التلفاز بنصف القيمة، كي لا يطلب العون من أحد، وليتمكّن من إعالة أسرته.

وكنت الابن البكر لعائلتي من بين إخوتي، وقد تأثرت تأثّراً شديداً حين بِيعَ جهاز التلفاز؛ إذ لم يغمض لي جفن طوال الليل، حين وجدت الطاولة فارغة، ولم أرَ التلفاز عليها، لقد تحطّمت نفسيتي كما تتحطّم آنية من الفخار إلى مئات القطع والشظايا المتطايرة، ولن أنسى هذه الحادثة الأليمة، حتى آخر يوم في حياتي.

وعلى صوت نادل المقهى النحيل عاد «أبي» إلى الواقع، فنظر إليه وهو بجانب الطاولة، وبيده النرجيلة، فأومأ برأسه أن ضعها، فوضعها النادل بجانب الطاولة، ثمّ أحضر له كأس شاي مخمّر، فأعطاه والدي البقشيش وانصرف.

شرب «أبي» كأس الشاي والنرجيلة، ودفع ما عليه من حساب، وسلّم على المحاسب وأقفل عائداً إلى منزله في حيّ الهلالية بمدينة القامشلي، وقد تملكه إحباط عميق؛ إذ لم يهدِه طول التفكير ولا كثرة الأفكار المتخبطة في مخيّلته إلى حلّ واضح لحال ابنه جنكيز.

- 15 -

وقفتُ مع صديقي «علي» أمام محل ملبوسات رجالية، وصرنا نستعرض الملابس المعروضة في الواجهة الأمامية المزجّجة للمحل فقال علّوش:

- ملابس هذا المحل، هي الأجمل في السوق.

- لا تنسَ، أنها الأغلى ثمناً.

وتذكّرت أنني -مرةً من المرات- تسوّقت من هذا المحلّ معطفي الشتوي بثمنٍ غالٍ، ذلك المعطف الأسود الذي سرعان، ما تغيّر لونه إلى اللون الرمادي الباهت، فقلت لصديقي:

- أعجبني ذلك القميصُ الأسودُ ذو الياقة الطويلة والكم الطويل.

- لا أحبّ الألوان الغامقة، أحبّ الألوان الفاتحة أكثر.

وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث حول الملابس، وموديلاتها وألوانها المختلفة، تناهى إلى سمعي صوت بائع جوال ينادي بصوت عالٍ: آيس كريم. فقلت لعلي:

- هل تتناول الآيس كريم، يا علوش؟

- إنها باردة جدّاً، وأسناني تلمع من الألم، يا جنكيز.

فقلت له بسخرية:

- يا حرام.. يا حرام.

ذهبت إلى بائع العربة، واشتريت البوظة المثلّجة، أمّا «علي» فدخل إلى محلّ الملبوسات الرجالية الجاهزة، وفجأة لمحتُ المرأة المتسوّلة نفسها، والرضيع الصغير على يدها، وهي ترضعه من ثديها، وطلبتْ منّي مرّة أخرى مساعدة مادية، كأنها احتفظت بملامح وجهي الشاحب في ذاكرتها، وعرضت عليّ للمرة الثانية، أن تقرأ خطوط كفّ يدي، ولكنني تجاهلت عَرضها للمرة الثانية في هذا اليوم من خلال تجوالنا في السوق أنا وصديقي «علي».

خرج صديقي «علي» من محل الملبوسات الجاهزة، ورآني مصفر الوجه، فسألني:

- ما خطبك؟ لماذا أنت مصفرٌّ هكذا؟ هذه المرة الثانية التي أراك فيها مخطوف الوجه!!

أجبته بشيء من الاضطراب:

- لا شيء.. لا شيء.

لقد أخفيت أمر تلك المرأة المتسوّلة، عندما التقيت بها في المرتين السابقتين من تجوالنا عن صديقي «علي»، لأنها كانت تبدو بالنسبة لي حادثة غريبة الأطوار، وكان من الأفضل أن أخبره بقصّتها، وما عرضت عليّ في المرتين من اللقاء العابر بها، لأن صديقي «علياً» ربما كان لديه شرح أو تفسيرٌ لها، لأنه تربّى في بيتٍ طغت عليه ثقافة دينية.

- 16 -

ومن جديد حاولنا قطع الشارع، والتوجّه إلى الطرف الآخر من شارع الوحدة، ووقفنا عند باب محل (يانصيب امسح واربح)، ثمّ دخلنا إلى المحل، وألقينا السلام على صاحبه، وسألته:

- ما ثمن بطاقة اليانصيب، يا سيدي الكريم؟

ردّ بكل لطف:

- خمسون ليرة فقط.

- هل تأذن لي أن أسحب بطاقة، يا سيدي الكريم؟

- بالطبع.

فتح البائع درج طاولته، وأخرج حزمة من بطاقات اليانصيب، وكانت بحجم بطاقات الدعاية والإعلان، وكان «عليٌّ» ينظر إلى أنفه الطويل والمعقوف الذي يشبه منقار النسر وقال:

- إن الحظ معاندٌ له طول الوقت.

فقال له البائع:

- وما يدريك؟ علّ الحظّ يحالفه هذه المرّة ويفوز بالجائزة.

فقال لي «علي»:

- اسحب آخر بطاقة يا نصيب من المجموعة، يا جنكيز.

سحبت آخر واحدة -كما أمر المقامر الصغير- وأمسكتُ بقلم كان على الطاولة، وقمت بمسح الدائرة الحمراء في وسط البطاقة، فظهرت إشارة X التي تشير إلى خسارة اللاعب، ثم دفعت ثمن البطاقة الخاسرة، وخرجت مع صديقي إلى الشارع من جديد.

ها هو القدر السيِّئ يقف في وجهي سدّاً منيعاً مرّة أخرى. نعم هزمتُ مجدّداً، ولكنّي لم أيأس، فهذه ليست نهاية الحياة، وتبقى المواجهات مفتوحة بيننا طالما الروح تتدفّق وتسري في جسدي الهزيل.

وقفتُ مع صديقي «علي» على رصيف الشارع، فحاول الاعتذار مني، فحاولت ألا أشعره بالذنب، فقلت له:

- لا تهتمّ، يا شيخي الصغير، فأنا معتاد على ذلك.

ابتسم ابتسامة لطيفة، وقال:

- لست شيخاً... هذا مزاحٌ ثقيل منك، يا جنكيز.

كنتُ أعرف، أن الحياة تشبه إلى حدٍّ ما ورقة اليانصيب التي سحبتها الآن، وكان لها وجهان: وجهٌ للربح، والوجه الآخر للخسارة. كذلك الحال بالنسبة للحياة، ففيها أيّام تمضي بالفرح والبهجة، وفيها أيام تمضي بالحزن والأسى، وعلى الإنسان الذي يبحث دائماً عن الغبطة والسرور، أن يكون راضياً بما يخبّئ له القدر من خيره ومن شرّه.

- 17 -

بعد الخروج من محل اليانصيب، تجوّلنا في السوق ببطء السلحفاة، ثمّ وصلنا في السير إلى مبنى سينما حدّاد سابقاً، وكان المبنى في زاوية شارع مؤسسة كهرباء القامشلي، التي تقع بمواجهة تجنيد الخدمة الإلزامية، وهذا البناء يمكن أن يكون الأقدم في السوق، وقد يكون قائماً منذ الاحتلال الفرنسي لسورية، وكان قديماً يستعمل صالة عرض لأفلام السينما، واليوم لم تَبقَ أيّ صالة عرض للأفلام في مدينة القامشلي كلها.

تقدَّم صديقي «عليّ» باتجاه الباب، فوجده مغلقاً، ولمح على الحائط لافتة كتب عليها: صالة مخصّصة للأفراح، وعلى ما أعتقد كانت لافتة قديمة، حتى هذه الأيام لا تستعمل كصالة.

أمّا أنا فقد أصبحت مثل قالب من الجليد، وتسمّرت في مكاني عند رؤية المرأة المتسوِّلة للمرّة الثالثة على التوالي وفي اليوم ذاته، وعلى يدها الرضيع الصغير، فتقدَّمَت نحوي وقالت:

- أنا أقرأ خطوط كفّ اليد.

تجاهلت وجودها، من دون أن أمعن النظر فيها. حيث طغى عليّ شعور من القلق والتوتر في تلك الوهلة، وقلت في نفسي:

- لا بدّ أنه فأل سيِّئ، وحظٌّ تَعِس.

لفت انتباهي وجود عشٍّ صغير من القشّ على حافة إطار النافذة، في الطابق الثاني من مبنى صالة سينما حدّاد القديمة، فرحت أتأمله وأصغي السمع إلى زقزقة العصافير الصغيرة فيه، وحين التفتُّ باتجاه المرأة المتسولة، كانت قد غادرت بدون أن أشعر بها، وكأنّ الأرض انشقت وبلعتها، كما ابتلع البحر فرعون وأتباعه في ذلك الماضي السحيق، فتوقّعتُ أن الأيام القادمة لن تحمل الخير بين طياتها، وأصبحت ضعيف القوة والعزم، عندها جلست القرفصاء، وأسندت ظهري إلى الحائط المقابل للنافذة العليا المقابلة للشارع، وحدجت ببصري نحو العشّ إلى الأعلى.

عندما عاد صديقي « علي» رآني في حالة من اليأس، فما هان أمري عليه، وبادرني قائلاً:

- هل أنت مريض، عزيزي جنكيز؟

- لا لستُ مريضاً، هل لاحظت وجود العش هناك؟

ردّ بعطف:

- حالتك، لا تعجبني أبداً.

ورنا إليه بنظره الثاقب، وظلّ لوهلة من الزمن يدقّق النظر في المكان الذي أشرت إليه، ثمّ قال:

- أين مكان العش، يا جنكيز؟

- حسناً لنرى، أين يكون؟

تقدَّمتُ منه، وربت على كتفه، وقلت له:

- ثبّت نظرك على زاوية النافذة، وأشرت بسبّابتي إلى الأعلى.

- لا يوجد شيء هناك.

فقلت له:

- يا بليد، قف هنا وأصغِ السمع جيّداً.

تقدَّم علّوش إلى الأمام، وحاول أن يستمع جيداً إلى الصوت، وحدج بنظره مجدداً، وقال فرحاً:

- نعم رأيت العشّ، ها هو في الزاوية.

عندها صفّقت بصوت عالٍ، وقلت له:

- ممتاز، يا شطور. وهل رأيت أبا العصافير الصغيرة أيضاً؟

- نعم، إنه يحاول أن يطعمها. ولكن ما الجديد في ذلك؟ إلى أين تريد أن تصل؟

قلتُ له، والحسرة تعصر قلبي:

- إنّه يطعمها بنفسه من أجل الحفاظ على حياتها، هو يقوم بواجبه الأبوي.

- الأب هو الذي أتى بهم إلى هذه الحياة، وهو المسؤول عنهم.

فقلت ساخراً:

- وأنا أعرف هذا جيداً.

فقال «علي» بصوت جهوريّ:

- ممتاز، يا صديقي جنكيز.

لقد خلّف هذا المشهد في نفسي أثراً كبيراً؛ إذ علّمتني الطبيعة درساً لن أنساه، فهذا الطائر الأب الضعيف المسكين يضحّي بما يجد من طعام في سبيل صغاره، ويحرم نفسه منه بعد جهد في الحصول عليه كُرْمَى لتعيش فراخه وتصحّ ويشتدّ ساعدها، وبعد أن تصبح قادرة على الطيران، تحلّق في السماء الصافية الزرقاء بكل حرية، ومن دون أن تُفرَض عليها القيود الأبوية، كما فرض «أبي» قيوده عليَّ.

- 18 -

بعد أن قضينا وقتاً طويلاً في السوق، وضعت يدي على كتف صديقي «علي» وقلت له:

- دعنا نرجع إلى البيت، فقد تأخّر الوقت.

- كما تشاء يا صديقي.

وقفنا عند موقف سيارات الهلالية للأجرة، ننوي العودة، وفجأة تسمّر «علي» في مكانه، ولم يتحرك قيد أنملة، ثمّ قال:

- أرجوك، يا جنكيز أريد أن نرجع إلى محل الموسيقا.

- خيراً!! هل نسيت شيئاً هناك؟

- لا... لا.

كان صديقي «علي» يصرّ على العودة، إلى دار الموسيقا، وأخيراً أفصح عمّا في قلبه، وقال:

- أريد رؤية الفتاة الشقراء، التي كانت تستمع إلى آلة الكمان.

فضحكت في قرارة نفسي، وتذكّرت المَثل الشعبيّ القائل: «فرخ البطّ عوّام». فرقّة قلب الشيخ «حسين» قد انتقلت إلى ابنه، بل إن ابنه قد تغلّب عليه في هذا المجال. فقلت له:

- حسناً، هيا بنا نعود إلى الوراء.

كاد صديقي «علي» أن يطير فرحاً وسروراً عند سماع قولي: إلى الـوراء، فقلت له:

- هل تنوي أن تجلب لنا المتاعب؟

- لا. أقسم برأس خالك الشيخ حسين، لا أنوي السوء.

وأضاف أيضاً:

- أنا أقول الحقيقة الوحيدة.

- 19 -

كان «علي» يمشي مندفعاً أمامي، و«أنا» خلفه بعدة خطوات، فتذكّرت ذلك اليوم الأسود الذي حطّم «أبي» فيه آلتي الموسيقية، وكنت أرفع يدي نحو أبواب السماء، طالباً المساعدة في حلّ مشكلتي المعقدة والمستعصية مع «أبي»، وقد طرقتُ أبواباً كثيرة لا تعدّ ولا تحصى من الأقرباء والمعارف حتى الجيران، وزججتُ بكل أوراقي في الحرب الخاسرة التي كانت تدور رحاها بيني وبين «أبي»، ولكن لم يتمكّن أحدٌ منهم من التغلب عليه في العدول عن قراره.

راودتني لعدّة مرّات متتالية رغبة في الانتحار، والخلاص من هذا العذاب الذي أنا واقعٌ فيه، ولكنّ دقات ناقوس عقلي دائماً كان صوتها الأقوى، وكان يتغلّب بسرعة على صوت القنوط واليأس اللذين عشّشا في قلبي.

وهذا ما كان يخيف أمّي ويقلقها، لذا لم تألُ جهداً في مساعدتي؛ إذ كانت تتدخّل بيني وبين «أبي» مراراً وتكراراً في غيابي، علّها توفّق بيننا، ولكنَّ كلّ محاولاتها باءت بالفشل الذريع في حلّ مشكلتي البسيطة.

عندها رفعت راية اليأس والاستسلام، ورضخت لقدري، في ظلّ هذه الحياة التي لا ترحم صغيراً ولا كبيراً، ولا فقيراً ولا غنياً، فلا الصغير فيها ينال ما يريد، ولا الكبير حياته على هواه تسير، ولا الفقير يحصل على ما يريد، ولا الغنيّ بها رغم غناه ووفرة ماله سعيد.

ومرّت الأيام قاسية صعبة عليَّ، وخيّمت على قلبي سحابة من الكآبة والسأم. فكنت في كثير من الأيام، عندما تخترق أشعة الشمس عتمة غرفتي، وتنشر النور فيها، كنت أحسّ بضيق يجتاح صدري، وكنت أتمنى انقضاء النهار مسرعاً ليحلّ الظلام، نعم بتّ أرى أنسي في الظلام، وسعادتي في الوحدة، وكادت تلك السحابة السوداء أن تغطّي كياني بالكامل وتُسوّد نقاء قلبي وتطمس أي بريق أمل فيه، ولكن بفضل الله، والإرادة القوية التي كنت أمتلكها بين جوانحي، تعدّيت هذه المرحلة من الاكتئاب بسلام وأمان.

وبفضل إشارات المرور الضوئية المتوضّعة على ناصية الشارع، عدتُ إلى الواقع، حيث كان صديقي «علي»، واقفاً تحت عمود الإشارة، يتحدث مع الفتاة الشقراء، وصرخ لحظتها بأعلى صوته:

- جنكيز. أين أنت نحن هنا؟

دنوت منهما، وسلّمت عليهما، فردّت الفتاة الشقراء بصوت ناعم مخملي جميل، وقالت:

- أشكرك على الحضور، يا جنكيز.

أجبت بكل تواضع واحترام:

- لا شكر على واجب، يا حلوة.

تدخّل «علوش» والابتسامة تنير وجهه، وقال:

- أقدّم لك صديقتنا الجديدة «روزا»، ابنة صاحب محل الموسيقا.

ردّت «روزا»، وهي تهزّ برأسها، ووجهها يشعّ نوراً وضياءً:

- أهلاً وسهلاً بك، يا جنكيز.

لقد كانت «روزا ليندا» في الخامسة عشرة من عمرها، ذات شعر أصفر مثل أشعة الشمس، وعينين زرقاوين بزرقة ماء البحر، وبشرة بيضاء ناصعة كالثلج، وجلد ناعم كالحرير، والابتسامة الملائكية لا تفارق محيّاها أبداً. ولكنها فاجأتني بسؤالها:

- لماذا أنت محبطٌ، يا جنكيز؟

أجاب صديقي «علي» نيابة عني، وقال:

- قصّته ملحمة طويلة، وتصلح لإنتاج فيلم رائع.

شعرتُ أن صديقي «علي» بالغ في الوصف كثيراً، فخرجت من صمتي وقلت:

- لا، إنها أقل شأناً من ذلك الوصف.

ثمّ نظرت «روزا» في قسمات وجهي الدقيقة، وسألتني:

- هل أستطيع مساعدتك في حلّ مشكلتك؟

كنت أعرف حقّ المعرفة أنها غير قادرة على أن تقدّم لي أدنى مساعدة، فكيف لفتاة رقيقة مثلها أن تحلّ ما عجزت أنا وأمي وغيرنا عن حلّه؟!! فقلت لها:

- أشكركِ يا «روزا» من كل قلبي على هذا الاهتمام البالغ، وعلى إبداء هذه المشاعر الرقيقة نحوي.

وعلى إثر سؤالها ذاك عاودتني موجة الكآبة مجدّداً، ففقدتُ أدنى إحساس بالأمل، وتجمّدتِ الدماء في عروقي، ثمّ أحسست بنيران الحقد والغضب تستعر بين أضلعي، وبأن جسدي الواهن يكاد يلفظ أنفاسه

الأخيرة، وبدأتُ أشعر بدوار قويّ، فغدوتُ أرى جميع المارّة باتجاهي وكأنّهم في تراجع إلى الوراء، بدلاً من التقدم إلى الأمام. أُصبتُ بانتكاسة جديدة، وفقدتُ الثقة بالمستقبل من جديد.

لقد كانت حالتي مأساوية للغاية، لا أُحسَد عليها. يا إلهي! هل هذا هو قدري؟ أن أعيش في أول شبابي كئيباً حزيناً، وأرى مِن حولي -وعلى مسافة أمتار قليلة مني- أصدقائي يمرحون في غبطة وسرور، كتلك العصافير الصغيرة البريئة التي شاهدتها على زاوية النافذة، و«أنا» مكسور الجناح محطّم القلب، لا يمكنني أن أشارك أصدقائي اللعب والمرح. يا ألله ما أقسى الحياة، عندما يقف القدر في محاربة روحك وقلبك، ويشكل برزخاً فاصلاً منيعاً بينهما!!

ما أشدّ حكمك يا أبي!! لقد اتّخذتَ بحقّي حكماً أقسى من حكم الإعدام، عندما منعتني من ممارسة هوايتي المفضّلة والمحببة إلى قلبي، ولا أنسى قولك لي دائماً: «يا جنكيز اترك السير في هذا الطريق العفن»، ولكن لم أجد شيئاً عفناً فيه، يا أيها السادة.

نعم، كان حكمه جائراً بحقّ ابن صلبه، يا أيها السادة المحترمون. لقد عذّب روحي الفتيّة الناشئة داخل أسوار جسدي الواهن الغضّ، من دون سبب، و«أنا» في ريعان الشباب، لقد نسيت طعم السعادة والسرور، ولكن للأسف السلطة الأبوية الذكورية المقدّسة والمطلقة في المجتمعات الشرقية هي التي قادتني إلى ذلك المصير المأساوي منذ بدايات حياتي، وجعلتني كسيراً لا أقوى على كسر حاجز هيمنة «أبي» المفروض عليّ. كنتُ «أنا» الطرف الخاسر في هذه المعركة الدائرة بيننا على آلة البزق

الوترية. وفجأة ناداني صديقي «علي» وهو يقول:

- لماذا لا تشاركنا الحديث، يا جنكيز؟

اقتربت الصديقة «روزا» مني، وحاولت أن تدفعني نحو صديقي «علي»، ثم قالت:

- دعونا نذهب جميعاً إلى محل أبي.

أجبتُ بهدوء تامّ:

- وماذا نفعل في المحل؟

فأجابت بصوت يقطر رقّة وحناناً، والابتسامة الملائكية تطوف حول شفتيها:

- من أجل حلّ خلافك مع أبيك.

- لا أريد منكِ شيئاً بهذا الخصوص.

فقالت، وهي خجلة:

- ألا تريد أن أساعدك؟ ألسنا أصدقاء، يا جنكيز؟

كانت هذه المرة الثانية التي تعرض فيها عليّ المساعدة في هذا اليوم، فقلت لها:

- هذا صعب، بل مستحيل.

- 20 -

ثم وَلجَ «علي» مع «روزا»، إلى محل الحلويات القريب من إشارات المرور الضوئية، وبقيتُ وحيداً هناك شارد الذهن، فجلستُ على رصيف الشارع، ثمّ وضعت رأسي بين يدي.

تذكّرت عندما كنتُ صغيراً، و«أنا» بعمر السابعة كنت أعيش في كنف جدي وجدتي في القرية. كنا نعيش نحن الثلاثة فقط في البيت، وكان جدي «عثمان» ذائع الصيت في المنطقة بسرد القصص، أينما يذهب يجتمع الناس ويلتفّون من حوله ليسرد لهم تلك القصص المشوّقة والممتعة. وكان جدّي موسوعة حقيقية، ولكن للأسف لم يكن يعرف القراءة والكتابة. لقد دُفن معه في قبره، ذلك الإرث الثمين من الأدب، وفي كلّ مساء، وقبل موعد النوم كانت جدتي «خولة» تلحّ على جدي، أن يروي لي قصة من تلك القصص لكي أنام على طيفها. وكان جدّي بارعاً في أساليب القصّ، فحين يشرع بسرد الأحداث، كان يجعلك تعيش مع أشخاص القصة وأحداثها، وكأنك تشاهد مسلسلاً أو فيلماً من أفلام أكشن الأمريكية الحديثة، التي تعرض على شاشة قناة إم بي سي تو. وفي يوم من الأيام، كان يروي لي قصّة عن بطل يتعذّب ويتألّم بشدّة، فسألته:

- ما العذاب والألم، يا جدي العزيز؟

أغمض عينيه، وأخذ نفَساً عميقاً، ثمّ وضع أصابعه المرتعشة بين لحيته البيضاء الكثّة، وراح يحكّ وجهه، ثمّ قال:

- يا بنيّ، عندما تكبر ستعرف معناها.

لقد ظلّتْ هذه الفكرة عالقةً في ذهني منذ ذلك الوقت، على الرغم من مرور سنوات كثيرة عليها، و«أنا» أتذكّر تلك القصة الأليمة التي تشابه قصتي الأليمة حالياً.

فجأة ربّتت «روزا» على كتفي، ومدّت يدها نحوي، وقدمت لي قطعة من الحلوى، فطلبتُ من صديقي «علي»، أن نغادر السوق في الحال، وبأسرع وقت ممكن، فاستجاب لطلبي، وتركنا صديقتنا «روزا ليندا» الجميلة الأنيقة، على أمل اللقاء بها في الأيام القادمة.

- 21 -

غادرنا السوق، وواصلنا المسير مشياً على الأقدام، إلى أن وصلنا جامع زين العابدين القريب من تمثال الرئيس، فصعدتُ درجات الجامع قبل صديقي «علي»، كي نشرب الماء البارد من البرّاد، وقلت له:

- اشرب أنت أولاً.

كانت آثار الغبطة والسرور ما تزال مشرقة على وجهه فقال لي:

- لا، أنت الأول.

وضعت يدي تحت صنبور البرّاد، وشربت وحمدت الله على نعمته هذه بصوت مرتفع، فسألني «علي»:

- هل صحيح أن الماء يسمّى إكسير الحياة؟

- أجل، فقد سعى الخيميائيّون القدماء سعياً حثيثاً في سبيل الوصول إلى شراب يطيل الحياة، وأجرَوا تجارب كثيرة، وعلى مدى أيام وسنوات، ولم يتوصّلوا إلى نتائج بشأن ذلك الشيء الذي كان يطيل الحياة. في حين كان الشراب الحقيقي الذي يحافظ على استمرارية بقاء الأنواع في الحياة موجوداً بين أيديهم، ألا وهو الماء إكسير الحياة والخلود... ولولا الماء لما وجدت الحياة من الأساس.

كان صديقي «علي» يثق بمعلوماتي في مادة العلوم، فسألني:

- هل صحيح أن الماء يدخل في تركيب كل شيء؟

رفعتُ إصبع إبهامي في الهواء دليل التأكيد وقلت له:

- أجل.

ثمّ رفع يده في الهواء، كما يفعل التلاميذ في أثناء الدروس، وسألني أيضاً:

- وهل صحيح أن ثلث جسم الإنسان يتكوّن من الماء؟

تقمّصت شخصية المعلّم ووقاره، عند تلقّي السؤال من التلاميذ، وأجبته:

- بالتأكيد يا بنيّ، وكذلك بالنسبة لتكوين الأرض أيضاً.

ثمّ جلستُ مع صديقي «علي» على إحدى درجات الجامع بعد الانتهاء من شرب الماء، وأخذنا قسطاً وافراً من الراحة والاستجمام، وفي تلك اللحظة، سمعتُ صوت صرير باب الجامع الحديدي الكبير، وقد أطل منه طيف شيخ طاعن في السن ذي لحية بيضاء، وعينين صغيرتين حدقتاهما طوليّتان، كحدقتي الهر السيامي، وكان يلبس لباساً طويلاً فضفاضاً، وعلى رأسه عمامة بيضاء، فقال:

- السلام عليكم.

رددنا بصوت واحد:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، يا شيخنا الجليل.

رأيت الحبور على محيّاه، وكان الوقت وقت صلاة العصر، فسألَنا:

- هل تودّان الصلاة في بيت الله، يا ولديَّ العزيزين؟

فرددنا أيضاً بصوت واحد وبالنغمة نفسها:

- أجل، يا شيخنا الجليل.

أردتُ أن أوضح للشيخ أن أبا «علي» هو أيضاً شيخ يؤذن في الجامع، فقلت:

- أبو علي يؤذن في بيت الله.

فسأل الشيخ للمعرفة فقط، من دون أية إضافات أخرى:

- ما اسمه؟

- الشيخ حسين.

- نعم، أعرفه.

ثمّ دعانا إلى بيت الله للصلاة، فدخلنا مع الشيخ إلى الجامع، وجلسنا بدايةً بجانبه على السجّاد العجمي ذي الألوان الفاقعة، ريثما يحين موعد الصلاة. فنظر الشيخ في وجهي فرأى فيه أمارات القلق واليأس والعذاب، فسألني:

- ما بالك يا فتى؟ الحزن لا يليق بمن هم في سنّك.

لقد جعلتني كلماته أستشعر حنان الأب وعطفه، ولشدّة ارتياحي له تفوّهت بلا شعوري بما أخفي عن الجميع من هول حلمي الذي رأيته ذات ليلة؛ إذ قلت له بجرأة:

- رأيت يوم القيامة في حلمي، يا شيخي.

فنظر إلى وجهي بدهشة واستغراب، وسألني:

- كيف ذلك، يا بني؟

- إنها قصة طويلة، يا شيخي الجليل.

- وهل تأثرت كثيراً؟

قطرت دمعة يتيمة من عيني اليمنى، وأجبته:

- نعم.

فمسح الشيخ بيده المرتعشة والمطّربة على شعري الأسود المجعد، وقال لي:

- هوّن على نفسك يا بنيّ، واستعدّ لتقصّ رؤياك علينا، فتفرغ ما في جعبتك من آلام، وما في مخيّلتك من أوهام، ولكنْ بعد أداء الصلاة.

وبعد الانتهاء من الصلاة، وانصراف الناس من المسجد، تقدّم الشيخ نحوي، وطلب إليّ أن أرافقه أنا وصديقي «عليّ» إلى غرفته الخاصّة في المسجد. فتبعناه، ودخل الغرفة، وجلسنا.

كانت خيمة الظلام تسدل ستائرها في أرجاء الغرفة، وكانت حزمة خفيفة من ضوء الشمس، تخترق زجاج النوافذ، وكانت تضرب على السجاد العجمي المفروش على الأرضية. فتلهب الألوان فيها بريقاً، يتخيل الناظر من حوله، كأنه في وسط بحرٍ مسجور.

فقال لي الشيخ:

- هل يمكن أن تقصّ علينا الآن حلمك، يا جنكيز ؟

- حسناً، يا شيخي الجليل.

ثانيا: الحلم

رحلة المسير

- 22 -

تذكّرتُ ذلك اليوم الذي استيقظت فيه خائفاً مذعوراً، ثمّ قلت للشيخ:

لقد رأيت نفسي، وأنا وسط غابةٍ مظلمة ظلاماً دامساً، ذات أشجار كثيفة، وهي تداعب بقاماتها الطويلة- وبدون مبالغة- صفحة السماء الرمادية، ولم أرَ قطُّ في حياتي الأولى هذه النوعية الغريبة والعجيبة منها.

كانت سوق هذه الأشجار لا تحتوي على غصون أو تفرُّعات، وكانت تكسوها وتغطيها الأوراق الرفيعة من الأسفل حتى الأعلى، حيث أوراقها كانت مثل إبر الخياطة في الحياة الأولى، وكانت هذه الأشجار الباسقة تشبه سيدنا «آدم» أبا البشرية عليه السلام بطوله عندما طُرد من الجنّة بسبب خطيئة أمّنا حواء.

وما هي إلا لحظات قليلة، حتّى عصفت ريحٌ صرصرٌ قويّةٌ على هذه الأشجار، فنَزعت الأوراق الدقيقة منها في إعصارٍ هائل وعنيف، وحملتها معها إلى السماء الرمادية، فأصبحت تلك الأشجار الباسقة عارية تماماً من أوراقها، وكل ذلك حدث أمام عيني المذهولة، ودَهشةِ جسدي المنتفضة، وقد حاولت النظر إلى الأعلى مراراً، ولكنني كنت أزيغ ببصري من شدّة هول المنظر وفداحته آنذاك.

كدتُ أبتلعُ لساني في حلقي خوفاً ورعباً؛ إذ رأيت السماء من فوقي، وهي تنفلق مثل وردة رمادية، فوقفت فاغر الفاه مدهوشاً، وفجأةً تلوّنَتِ السماء وغدت كسجاد المراسيم الأحمر، فتلوّنت تلك الأوراق الرفيعة باللون نفسه، ثمّ أصبحت تنقلب في حركات عشوائية على أشكال دوائر متقطّعة. ثمّ أصبح لون السماء أزرقَ، فاكتست تلك الأوراق باللون الأزرق، وكانت تدور بنفس الحركات السابقة، ثمّ تلونت السماء باللون الأصفر، فتلونت الأوراق بذلك اللون أيضاً، وهكذا توالى تلوُّنُ السماء مع الأوراق الرفيعة العالقة في السماء الواسعة بجميع الألوان في ذلك الوقت.

قلتُ لنفسي في تلك اللحظة: إن لم أكن مخطئاً، فما هذا إلا فصل الخريف في دار الآخرة. وقدّرتُ بحدسي أن هذه، ما هي إلا علامات ودلائل تشير إلى قيام الساعة.

- 23 -

وبعدها رأيت نفسي، وأنا منغرس في وسط بحيرة جليدية، كانت مزجّجة بالكامل، حيث شلّت حركة قدمي، وأنا أكافح، وأجهد بكل ما أوتيت من قوّة كي أخلّص نفسي منها، ولكن لا جدوى من ذلك، وكنت الوحيد في ذلك الوسط، ثمّ بكيت بكاءَ مخنوقٍ أخرسَ، وصرخت بعدها صرخة جامدة مثل ذلك الجليد الذي أنغرس في وسطه، ولكن ليس من مجيب. وفجأةً توقّفَتْ هذه الظواهر الفريدة الغريبة، ورانَ الصمت والسكون على ذلك المكان الجديد، وانقطعت حركة كلّ شيء، حتى الهواء أيضاً، فطرحتُ على نفسي عدّة أسئلة:

- لماذا توقفت الحركة فجأةً؟

- أين اختفى الناس الذين كنتُ أعرفهم؟

- أين أبوايَ وإخوتي؟

- أين أصدقائي وأقربائي؟

- أين أهل مدينة القامشلي الذين كنتُ أعرفهم سابقاً في الحياة الأولى؟

ورحت أدورُ برأسي المشوّش في جميع الجهات، فلم أرَ أحداً منهم قطُّ. فنظرت إلى نفسي، وأنا وحيد هناك، فوجدتني أصبحت عارياً حافياً، من قِمّة رأسي حتى أخمص قدمي، كما ولدتني أمي، قد خرجتُ من ظلام القبر، إلى نور الأبدية النهائي.

ورأيتُ بعد كل ذلك، وعلى ذراعي الأيمن كتاباً على شكل قطعة من خشب مستطيل، بحيث لا يتجاوز طوله عشرين سنتيمتراً، بحسب مقياس الحياة الأولى. كان كتابي مشدوداً على ذراعِي الأيمن بمطّاطٍ أبيض عريض من الطرفين.

مسحتُ بقايا غبار التراب المتعلّق بجسدي العاري، حيث كنتُ مدفوناً في القبر تحت التراب، وقلت في نفسي: لا شكّ أنني في عالم ما بعد الموت، حيث عالم البعث والنشر من القبور.

وبعد مرور سبع دقائق أو أكثر، نظرتُ من حولي إلى جميع جهات الأرض، فرأيتُ الناس يخرجون من الأجداثِ أفواجاً أفواجاً، وكأنهم بذور نباتات مدفونة سابقاً، أُعِدَّت للزراعة كما في الحياة السابقة.

رأيتُ الناس من حولي، أيضاً حُفاةً عراةً، منهم الصغار والكبار، والرجال والنساء، ينفضون عن أجسادهم العارية غبار التراب الناعم نعومة بودرة الأطفال في الحياة الأولى، وكانوا ينظرون إلى بعضهم مذهولين مصعوقين، ومنهم من كان كتابه في يمينه، ومنهم من كان كتابه في شماله. كما شاهدتُ من بين هذا الجمع الغفير والكثير أبويّ العزيزين ذلك الوقت، حافيَينِ عاريَينِ، وملاكاً صغيراً كان يحلّق من فوق رأسيهما كشعاعٍ من نور، وكان هذا الشعاع من الضوء هو أخي الصغير في الحياة الأولى، الذي مات عن عمرٍ لا يزيد عن ثلاثة أشهر تقريباً من ولادته الدنيوية.

كنتُ أراقب أبويَّ وهما قادمان نحو المكان الذي تسمّرت فيه، فدفعني الشوق واللهفة لمقابلتهما واحتضانهما إلى مسارعة خطواتي نحوهما،

وعندما اقتربت منهما أكثر، ناديت أبي بصوت مرتفع:

- أنا جنكيز، يا أبا جنكيز.

لم أسمع من جواب غير الصمت المطبق. وكانت حدقتا عينيّ والدي حمراوين، وتدوران في محجريهما، مثل كُرة من النار، فقلت له للمرة الثانية، وأنا متلهّفٌ للغاية:

- أنا جنكيز، يا أبا جنكيز.

ولم أسمع جواباً أيضاً. ضقتُ ذرعاً منه في تلك اللحظات الحرجة، والتفتُّ هذه المرة نحو أمي، أملاً في أن تتعرف إليَّ، ولا تتنكّر لي كما تنكّر أبو جنكيز أنني ابنه، وناديتها بأعلى صوتي:

- أنا جنكيز، يا أم جنكيز.

فلم أسمع ردّاً من أمي أيضاً، وظل والداي العزيزان يعيشان في بحر من الصمت والسكون، ثمّ تجمدت عليهما مياه البحر، وظلا يجهلانني ولا يتعرفان إليّ في ذلك الوقت.

تولّد لديّ شعورٌ غريب من تصرفهما معي، فقلت في نفسي: ألم أكن في يوم من الأيام في الحياة الأولى، الابنَ البكر لعائلة أبي جنكيز الدنيوية؟! ولماذا هذا النكران القاتل؟ إن هذا تجاهلٌ قاسٍ ومجحفٌ بحقّ ابنهما الدنيوي... ها هي جميع الأبواب والروابط المعرفية للحياة الأولية، تقفل في وجهي... وبتُّ تعيس الحظّ هنا أيضاً، وأنا الغرّ الجديد في هذا المكان المجهول.

بدأتُ أبكي، وأصرخ مثل الأطفال، وبصوت عالٍ، والدموعُ تتدفق من عيني، وتسيل على صفحة وجهي، ولكنّ كلَّ هذا لم يثمر أيّ فائدة. وفجأةً لمع نورٌ ساطع كان يحلّق بجناحيه الأبيضين الصغيرين فوق الزائرينَ القادمِينَ من الحياة السابقة، وكان أخي وأبواي يمشون معاً، فسألتُ الملاك الصغير:

- هل أنت حارسٌ لهم، يا أخي الملاك؟

- نعم، من أجل مساعدتهم.

وأضاف الملاك الصغير، ولكن بنبرة واثقة هذه المرة:

- ستعرف كل شيء لاحقاً، يا أخي الدنيويّ.

- 24 -

تركتُ الملاك الحارس وحيداً مع أبويه، ونظرتُ مذهولاً مصعوقاً إلى الحشود الضخمة من الناس العُراة الحُفاة، وقد كانوا مجتمعين على شكل زمر متفرّقة، وكلّ زمرة كانت تجتمع على شكل حلقة دائرية مغلقة، يتجاذب أفرادها أطراف الحديث فيما بينهم، ولكن بلغتهم الخاصة، وعلى الأغلب كانت كلها إيماءات وإشارات خاصة تتناسب مع تلك الأجواء الجديدة.

اقتربتُ من أخي الملاك الدليل الذي أتعامل معه، وأعرف لغته، ويتكلّمُ معي في ذلك العالم الأبدي الغامض والمجهول، وتحدّثتُ معه بشأن كثير من الأمور والقضايا التي لا يستوعبها عقلي وتفكيري، وسألته:

- لماذا هؤلاء الناس يقفون في حلقاتٍ دائرية؟

- كلٌّ بحسب أعماله وأفعاله التي جنتها يداه.

- تقصد أعمال الحياة الأولى؟

أجاب ملاكي، ومعلمي الصغير، وهو يحلّق طائراً:

- نعم.

وباتجاه الجنوب، وليس بعيداً كثيراً عني، كانت هناك زمرة، واقفة في حلقة دائرية، وعلى ذراع كل فرد من أفرادها الأيسر كتابٌ مشدود بمطّاطٍ

أسود رفيع، فقلت متسائلاً:

- مَن هؤلاء القوم؟

- إنهم من زمرة أهل البغاء والزنا.

- وأولئك الأبعد منهم قليلاً؟

- إنهم زمرة المُرابين ذوي القلوب السوداء، والدم الأسود.

وباتجاه الغرب، كانت هناك زمرة عشوائية غير منتظمة، كانت على شكل دائرة تثير الريبة والشكّ في حركاتها، وكان أبناؤها يتلوون ويتمايلون، من شدة الألم الروحي الذي يقاسونه، فسألت ملاكي الصغير:

- ومن هؤلاء الغرابيب السود؟

- إنّهم من الساسة، وثلة من رجال الدين المنافقين، وبعض أولياء الأمر غير العادلين.

ثمّ نظرتُ باتجاه الشمال، فرأيت زمرة تلتفّ في حلقة دائرية أكبر من الحلقات السابقة كلها، فسألت عنهم:

- ومن أصحاب هذه الحلقة الكبيرة؟

- إنهم خليط من الحسّاد، والكذّابين، والمنافقين، وتجارّ المخدّرات، والقتَلة المأجورين، والفضوليين الثرثارين، والأغبياء الحمقى، والمتعجرفين، وأصحاب النفوس الضعيفة، والسارقين، والنصّابين، وشديدي الغضب السريع، والكُسالى، والمجرمين، والكفار، والمغضوب عليهم، والضالّين عن الحقّ.

لقد كان أخي الملاك الصغير، يعرف كل أسرار هذا العالم الجديد المجهول الذي انتقلنا إليه مجدداً. ثمّ سألته:

- والآن، ماذا سنفعل يا أخي الملاك؟

- ستعرف فيما بعد لا تستبِقِ الأحداث.

فسألته بهمس:

- هل جئت لتساعد أبويك؟

- بالطبع، يا أخي الدنيوي.

وبعد أن لفظت الأرضُ كلَّ ما في جوفها من الأموات الأحياء، تهيّأت تلك الحشود الجرّارة من الملأ الحفاة العراة والصغار والكبار الذين لا ينظر أحدهم إلى الآخر، استعداداً للانطلاق من مدينة القامشلي في موكب طويل مهيب.

ولكن كانت كلّ زمرة من تلك الزمر مستقلة ومنفصلة في أفرادها عن الأخرى، في أثناء رحلة المسير. وكانت تشبه حياة الحيوانات في الحياة الأولى، حيث كلّ قطيع يرعى مع قطيعه، حيث الأُسود مع الأُسود، والذئاب مع الذئاب، والثعالب مع الثعالب، وكذلك كان حال أسراب الطيور والجوارح، حيث الصقور مع الصقور، والحمام مع الحمام...كل نوع يطير مع نوعه. هكذا كان المشهد في عالم ما بعد الموت، حيث في هذا العالم الجديد، يجب أن لا يختلط أي فرد من تلك الزمر، مع أفراد الجماعات الأخرى، وكانت عمليات الفرز والترتيب والتعامل هنا كلّها بحسب الأعمال التي قدّمها، والذنوب التي ارتكبها في الحياة الفانية.

- 25 -

لقد بدأنا رحلتنا في المسير مشياً على الأقدام، وكنتُ قريباً من أبويّ وأخي الملاك الصغير دليلنا، وكنّا نمشي بكلّ سهولة وأريحية، لم أشعر قطُّ بالتعب والإرهاق خلال السير، وكانت وجهتنا خلال المسير باتجاه القبلة التي كنّا نتخذها في أثناء الصلاة في حياتنا الأولى.

لقد أصبحنا أنا وأبوايَ، ولفيف من الناس في مقدّمة موكب المسير، ونظرتُ من وراء كتفي إلى الخلف، فرأيتُ بعضاً من أفراد تلك الجماعات، كانت تتأخر متخلّفة عنّا في المشي، وكانوا يتحركون ببطءٍ شديد وصعوبة بالغة، لا يمكن وصفها مهما قلت. كانت أرجلهم مقيّدة بسلاسل وقيود حديدية، تعيق حركات أقدامهم في المشي، وكان العَرق البارد يسيلُ على أجسادهم الباردة، فتحرقها حرارة اللهب المتّقد، فيصبح التراب الخشن من تحت أقدامهم الحافية طيناً لزجاً، فلا يقوى أبناء الركب على حمل أجسادهم الثقيلة، فيكبّون بوجوههم على الأرض الجهنمية المستعرة، في أثناء المسير إلى الأمام. فسألتُ الملاك الدليل:

- لماذا يتأخّر، هذا الجمع الغفير من الناس عنا؟

- ألم تر كتبهم معلّقة في شمائلهم؟! وما أدراك ما الشمال؟! انظر إلى أبويك، لا يتكلم الواحد مع الآخر، ولا يتعرف إليه. ففي أثناء رحلة المحاسبة على الأعمال، كل فرد رهينٌ بما كسب، وإذا كانت كفّة الحسنات

والأعمال الصالحة ترجح على كفة الخطايا والذنوب، فتسهل على صاحب الرحلة الوصول إلى غرفة الحساب والجزاء بيسرٍ من دون عسر.

فسألت أخي الملاك الدليل:

- وأين غرفة الحساب والجزاء؟

- في مدينة دمشق.

عرفتُ من أخي الملاك الصغير ودليلي في تلك الرحلة، أن المحاسبة النهائية على الأعمال سيكون مقرّها في مدينة دمشق السورية، وبعدها سيجري الفرز والتصنيف حسب الأعمال، إما إلى الجنة والنعيم، أو إلى الجحيم وبئس المصير. وفي حلمي، وصلنا في الرحلة الأبدية، إلى مدينة الحسكة، وهي مركز المحافظة، وتبعد عن مدينة القامشلي الحدودية ذات الأغلبية الكردية حوالي مسافة 85 كم.

لقد التحقَتْ بالمسيرة أفواجٌ جديدة من الأموات، وهي تقوم من القبور، وانضمت مباشرة إلى زمرها، في أثناء عملية السير والمرور بالمدن السورية، من دون أن تختلط مع غيرها من المجموعات المختلفة، وكانت القوانين صارمة حازمة، حيث تطبَّق بصرامة، مهما كانت الظروف قاهرة وقاسية. لقد كان كلُّ شيء هنا تحت سيطرة جيش الملائكة المنتشرين بكثرة في كلّ مكان، يطيرون ويحلّقون بأجنحتهم فوق رؤوس الحشود والأفواج القادمة من الحياة الأولى، للحفاظ على الأمن والنظام، بين تلك الزمر المختلفة، وليس لهم علاقة بتعذيب الناس، في هذه الرحلة السرمدية.

لقد قطعنا في رحلتنا الأبدية كلّ المدن السورية، التي كانت تقع على خط مسير الرحلة الأبدية، ومررنا بمدينة دير الزور، حيث تذكّرت الجسر المعلّق، وتذكّرت شارع ستة إلا ربع في الحياة السابقة، وكذلك مدينة تدمر الأثرية، وصادفنا غيرها من الروافد الصغيرة والكبيرة من المدن السورية الأخرى عند كل دخول جديد، وتقدُّم لنا في العمق.

- 26 -

وأخيراً، وصلنا إلى دمشق العاصمة، قلب سورية النابض، نهاية مطاف رحلة موكب المسير، حيث مركز التجمُّع النهائي، لهذا الحشد الهائل الضخم، والكثير من الناس الصالحين.. الطالحين.. الخيّرين.. المنافقين.. استعداداً للمثول، أمام حكم الأمر الإلهي الأخير.

لقد كان حدثاً جللاً، إما أن تكون من الفائزين بالنعيم، وإما أن تكون من الخاسرين، من أصحاب الهاوية، وأنت لا تعرف شيئاً عن الهاوية، وعذابها الشديد، إنها نهر من النار المستعرة والحامية، يغطس فيها المجرمون والكفرة.

ولكنني كنتُ متفائلاً منذُ بداية رؤيتي للحلم الأبدي، لأنني رأيتُ كتابي في الحلم مشدوداً بمطّاط عريض على ذراعي الأيمن، وهذا ما كان يدفعني ويشجعني على الأمل، والظفر النهائي بالجنة الأبدية، والفوز العظيم بالفاكهة، وحور العين، والعتق من النار المستعرة. ولكن في الحياة الأولى، حيث الولادة الأولى، لا يخلو أيّ كائن كان من الوقوع في الأخطاء والذنوب، وخير الخطائين هم التوّابون، ولكن أقصد اللممَ منها، وليس الكبائر والفواحش.

كنتُ دائماً في الحياة الفانية، أحسُّ بشعور من الرضا واطمئنان النفس، بأنني في يوم من الأيام، سأغادر هذا العالم المليء بالشرور والآثام، مثلما يغادره في كلِّ دقيقة واحدٌ من الناس.

ثالثا: الحلم
غرفة الحساب والجزاء
- 27 -

وأخيراً وصلنا إلى غرفة الحساب والجزاء، وكانت نهاية تلك الرحلة، أينما تنظرْ ترَ تلك الحشود الضخمة.

كانت تذكّرني بتلك التظاهرات التي كان تقوم بها المعارضة لإسقاط المُولات بلبنان في الحياة الأولى، ثمّ وجدت نفسي أمام غرفة كبيرة ضخمة. كان بابُها أكبرَ بابٍ رأيتُه في حياتي، ذا مصراعين كبيرين، وعلى كل طرف منهما، يقف ملاكٌ حارس طويل، وقبل الولوج إلى غرفة الحساب والجزاء، وعلى عتبة الباب الكبير يبدأ الصراخ والعويل الجهنّمي، من شدة الخوف والهلع الشديدين.

كان المشهد حقّاً فظيعاً مأساوياً، لا يمكن وصفه بالكلمات. فالمشاعر والأحاسيس الرقيقة، لا تترجَم أحياناً، ولو جمعنا كلَّ مفردات لغات أهل الأرض وقواميسها، فإنها لا تعبّر عن حجم المعاناة المريرة التي كنتُ أمرُّ بها آنذاك، وأنا وحيد وغريب، وكنتُ أحدج في الذين يخرجون من الغرفة بعد صدور الحكم عليهم، كانوا ينهارون، ويتمرّغون في التراب من قلّة القوة والعزم في أجسادهم الهزيلة، من جرّاء الحكم الذي يصدر بحقهم من المحكمة الإلهية آنذاك، ومنهم من كان يُغمى عليه، فيسقط صريعاً على الأرض من شدّة صعوبة بليّته.

- 28 -

شاهدتُ أمي تدخل إلى غرفة الحساب والجزاء للمثول أمام المحكمة الإلهية الرحيمة الغفورة، وكان يرافقها أخي الملاك، ثمّ ظلت لفترة زمنية قصيرة، حتى خرجت والابتسامة لا تفارق محيّاها، لقد فازت بنعيم الآخرة، حيث دار الخلود الأبدية؛ لأنها كانت امرأة تقيّةً ورعة.

لقد عملتْ أمّي بجدّ ونشاط في حياتها الأولى، وهاهي تجني من ثمار عمل شجرة الإيمان الآن، في هذا اليوم العسير الذي نحاسب فيه على أعمالنا وأفعالنا الدنيوية هنا.

ثمّ جاء بعدها دور أبي، فولج مع أخي الملاك الصغير -دليله في تلك الرحلة الأبدية الشاقّة- إلى غرفة الحساب والجزاء الأخيرة (غرفة الميزان المخيفة)، ثمّ ظل أبي لفترة زمنية أطول من تلك التي قضتها أمي هناك، وذلك لسبب يجهله ولا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، ثمّ خرج أخيراً وهو يترنّح في مشيته، ولكنّ أمارات الغبطة والسرور كانت بادية للعيان بوضوح على مُحيّاه.

والآن حان دوري للدخول إلى غرفة المحاسبة على الأعمال الدنيوية السابقة، فوضعت قدميّ على عتبة الباب الكبير ذي المصراعين، واحمرت عينايَ، وتوقّدتْ مثل الجمر المشتعل في رأسي ذلك الوقت، وقد غمرني خوفٌ بهيميّ من أخمص قدميّ حتّى قِمّة رأسي آنذاك، فقلتُ:

- أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

بدأتُ أتضرّع وأتوسّل مبتهلاً إلى الله خالق السموات والأرض وما بينهما، أن يشملني بواسع رحمته مع الأتقياء والصالحين، وأن يغفر لي الذنوب والمعاصي اللمم التي ارتكبتها في حياتي الأولى.

فأنا العبد المسكين، والمحتاج دائماً وأبداً إلى رحمة ربه الواسعة وكذلك مغفرته.

وأخيراً، دخلت غرفة الميزان الواسعة المظلمة، فرأيت في وسطها طاولة كبيرة الحجم، وعليها ميزان عملاق يقسط بالعدل، ومن ورائها، كانت هناك أيضاً رأس كبيرة بملامح بشرية، ولكن على هيئةٍ بشعة مخيفة، لم أرَ في حياتي الأولى شبهاً لها أقارنه معها، وكانت جمجمة صاحبها ضخمة، لا حدّ في ضخامتها، وعيناهُ حمراوين واسعتين كبيرتين، يشعُ منهما ضوءٌ ليزريٌ أحمر، حتى يكاد يكون النور الوحيد الذي يضيء ذلك المكان المظلم المخيف، وله حاجبان كثّان طويلان جداً، رؤيتهما تدخل الهلع والذعر إلى الأفئدة، فتقشعر منها الأبدان. يا لعظمة الرحمن!!

تابعتُ تضرّعي وتوسّلي إلى الله -عزّ وجلّ- أن يغفر لي، ويتجاوز عن ذنوبي الصغيرة، وكانت كلّ خلية في جسدي العاري ترتعش وتنتفض من الخوف، والدماء قد تجمّدت في شراييني وعروقي في ذلك الوقت.

وأخيراً، تقبّل الله دعوات عبده الضعيف والذليل له، واستجاب لها، فخرجتُ من غرفة الحساب والجزاء منتصراً فخوراً بنفسي، وراضياً كلّ

الرضا بالحكم الذي أصدرته المحكمة الإلهية العليا بحقّي، تلك المحكمة التي لا تخطئ في حكمها أبداً، على عكس محكمة أهل الأرض التي تخطئ بحقّ كثيرين من أبنائها الأبرياء، والمظلومين في الحياة الدنيا.

لقد رجحت كفة أعمالي وأفعالي الخيّرة على كفة سيئاتي وأخطائي الدنيوية، فقلتُ في ذات نفسي:

- حمداً لله، وألف شكر لك خالقَ السموات والأرض، وما بينهما.

وبعد أن خرجتُ من ذلك المكان منتصراً وفخوراً بأعمالي الصالحة، حملني ملاك ذو أجنحة طويلة على ظهره، وطار بي محلّقاً في سماء مدينة دمشق المقدّسة، وعندما كان يحلّق، وأنا فوق ظهر الملاك في تلك الرحلة السرمدية، شاهدتُ الأرض من الأعلى، فرأيتُ مجموعة من الشباب والبنات العرايا كانوا يرقصون، ويمرحون على أنغام الموسيقا الصاخبة، والأضواء الكاشفة، فسألتُ الملاك الطائر الذي كان يحملني على ظهره:

- من هؤلاء الناس؟

- هم من أهل النار؟

النهاية

- 29 -

أنهيتُ قصّ حلمي على الشيخ والدموع تبلّل وجنتيّ، من غير أن أعي هل هي دموع الفرح للفوز بالآخرة، أو هي دموع الحزن من واقعي الدنيوي المرير؟؟

فكفكف الشيخ دموعي بيديه المباركتين، وسألني:

– لماذا تبكي يا ولدي؟ يجدر بك أن تتفاءل بحلمك هذا، فقد ظفرت بالنعيم الذي نحلم جميعاً بالظفر به، ونسعى طوال حياتنا الدنيوية لكسبه. فحلمك مؤشر خير ستلقاه في دنياك وآخرتك.

نظرت في وجه الشيخ المهيب، وقلت له:

– يا مولاي، رسمتُ درباً في عقلي، وعلى هوى قلبي، ولم أستوعب بعدُ قواعدَ اللعبة الصحيحة في ممارسة هذه الحياة، فأنا في ريعان الشباب، وأحمل في جعبتي آمالاً عراضاً وأحلاماً وردية أسعى إلى تحقيقها، ولم أعلم أنني سأصطدم بالواقع الاجتماعي المرير، وكذلك بالعادات والتقاليد التي تسيّر حياة الناس فيها وتضبطها.

لقد تعلّق قلبي بآلة البزق تعلّقاً كبيراً، وأحببت العزف عليها أيّما حبّ، ولكنّ أبي وكثيراً من أبناء مجتمعنا ينظرون إلى الموسيقا على أنها من

المحرمات، وكان الشيخ حسين والد صديقي وصديق أبي يسمّيها آلة الشيطان. وهم يزعمون أنّ العازف عليها سيكبّ على وجهه في النار، لذا رأيت في حلمي أن الشباب والفتيات الراقصات على إيقاع الموسيقا هم من أهل النار.

ومنذ أن رأيت ذلك الحلم وأنا في حيرة من أمري –يا شيخي– هل أنصاع لرأي أبي وأتخلى عن حلمي في أن أصبح عازفاً مشهوراً؟ أو أخالفه وأتبع نداء قلبي وموهبتي؟

ابتسم الشيخ في وجهي، وقال:

– يا ولدي، كلٌّ ميسَّر لما خُلِق له، فإن كنتَ تشعر أنّك قد خسرت في معركتك الأولى مع القدر بآلة الشيطان التي ترى أنها تحقق لك سعادة الدنيا، فإنّك قد ربحت الرهان الأكبر، ألا وهو الفوز بدار الخلود الأبدية في الآخرة. ولا تدري علّك تجمع بين سعادة الدنيا ونعيم الآخرة، فما زلت في أوج الشباب، ولا تدري ما يخبّئ القدر لك من مفاجآت.

فور سماعي كلمات الشيخ سَرَت في أوصالي أسراب من الطمأنينة والراحة والسكينة، وودّعته والأمل يملأ قلبي.

غادرت مع صديقي «علي» المسجد مسرعاً نحو البيت، فصادفت مرّة أخرى المرأة المتسوّلة، وكانت هذه المرة تبتسم في وجهي، وقالت لي:

– ثمّة خير كثير ينتظرك أيّها الشابّ.

لم أبالِ ببشارتها، وحثثت الخطى مسرعاً نحو البيت من دون أن أعـرف ما يدفعني إليه، ومن دون أن أتخذ أيّ قرار بما يخصّ مستقبلي.

دخلت البيت، وولجت إلى غرفتي، وهنا المفاجأة الكبرى؛ لقد رأيـتُ آلة بزقٍ تستلقي على سريري، فوقفت مذهولاً حائراً تتخبّطني أفكار شـتّى؛ وإذ بوالديّ يدخلان إلى غرفتي، فتقدّم والدي نحوي وقال لي برفق:

– لن أكون عقبة في طريق موهبتك يا جنكيز، وسأسمح لـك بممارسـة العزف على البزق، ولكن بشرط أن تعدني أن تهـتمّ بدراسـتك، وأن تعـزف عليها في أوقات فراغك، فتُحقّقَ حلمي في أن تغـدو طالبـاً مجـدّاً، وتظفـر بحلمك في أن تصبح عازفاً بارعاً.

اندفعتُ نحو أبـي، وعانقتـه بقـوّة، وقبّلـت يديـه الطـاهرتين، وعلـت زغاريد أمي معلنة بداية حياة سعيدة جديدة، مؤيّدة حلمي السعيد، وبشارة الشيخ الجليل السارّة، ونبوءة المرأة العرّافة الحسنة.

جنكو تمو

9| 9| 2019م

الفهرس

الإهداء 5

أولاً: ما قبل الحلم..... 7

ثانياً: الحلم- رحلة المسير..... 76

ثالثاً: الحلم-رحلة الجزاء والحساب 89

النهاية..... 93

الفهرس..... 96

رواية آلة الشيطان

تعرض موقف المجتمع من الموسيقى والعزفِ على الآلات الموسيقية وتعرّي كيفية منع بعض الآباء مواهب أبنائهم من خلال الشاب(جنكيز) الذي حطّم له والده بُزقه على الرغم من تعلقه الشديد به.

وتتحدث الرواية عن حُلم عجيب رآه ذلك الشاب في نومه يدور حول المحشر ويومِ البعثِ ليجد نفسه من أهل القبول والفوز بالجنة .

دار النهج

سوريا - حلب

tell : (+963 21) 2689006

fax : (+963 21) 2228237

mobile : (+963 933) 332675